٢٠٧

HARLEQUIN

روايات احلام

ملاك في خطر

شارلوت لامب

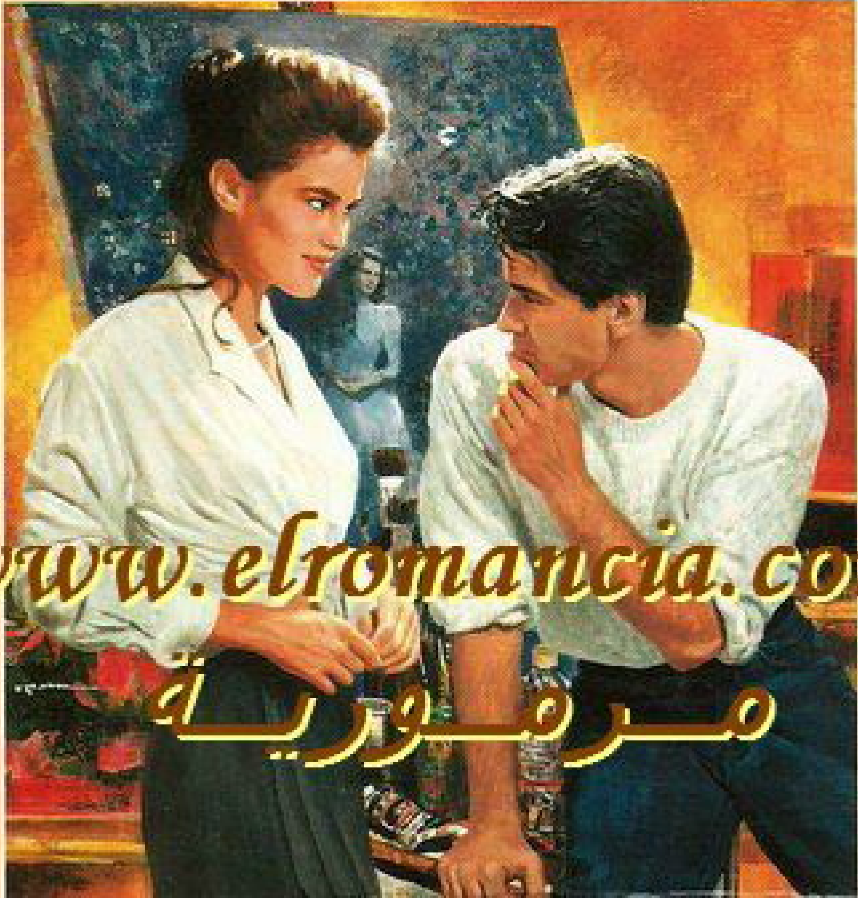

www.elromancia.com
مرمورية

ملاك في خطر

الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون...

ما ذنب ملاك الرحمة لويزا جيلبي إن كانت سيارة والدها قد اصطدمت بسيارة الرسام الشهير " زاكاري ويست" ؟! ما ذنبها إن التهمت النيران لوحاته وشوّهت وجهه الذي أفقد صواب نساء كثيرات؟!

- لا تكذبي علي! أعرف ما أراه في المرآة! لن يغمى بعد الآن على أي امرأة عند رؤيتي، إلا رعباً كما فعلت أنت الآن!.

ولكن هل يعلم زاكاري أن سبب إغماء لويزا لم يكن الرعب بلِ نبضات قلبها المتسارعة، التي افلتت من سيطرتها مذ رأته ممدداً على السرير الأبيض!

www.elfaoacia.com

شارلوت لامب

ولدت شارلوت لامب في لندن، قبيل اندلاع الحربِ العالمية الثانية. أمضت معظم أيام الحرب تتنقل من منزل قريب إلى آخر، هرباً من القصف. تلقت تعليمها في أحد الأديرة وبعد انتهاء دراستها عملت في مصرف (بنك انكلترا). تزوجت من صحفي ورزقت منه بخمسة أولاد. تعيش مع عائلتها في منطقة (أيل أوف مان).

لشارلوت لامب رصيد من الروايات يفوق المئة، معظمها من إصدارات شركة (ميلز أند بونز).

١ ـ ملاك الموت

وضع «زاكاري ويست» آخر لوحة في سيارته، ثم عاد يتفحص الحمل ليطمئن إلى حسن توضيبه. أراد تجنب أي حادث في الطريق، لذا أخذ اللوحات بنفسه، بدلاً من أن يرسلها بالشحن كما أراده «ليو» أن يفعل.

ـ إن ذلك آمن أكثر، يا زاكاري، وأقل إزعاجاً لك! يحزمون كل شيء بأنفسهم.

ـ أفضّل القيام بذلك بنفسي.

ـ هذا جنون، يا زاكاري. فهؤلاء الناس خبراء..

ـ لقد فقدت ذات مرة لوحة من لوحاتي عندما سقطت من أحدهم وداس عليها بقدمه. لا أريد أن يتكرر ذلك، سأحزمها بنفسي ثم آخذها إلى لندن.

ـ لماذا العناد؟ يا لك من رجل مثير للغيظ.

أخذ ليو يجادله، لكن زاكاري لم يغيّر رأيه. اعتاد ان يفكر مطولاً وبإمعان قبل القيام بأي عمل، لكنه عندما يعزم على أمر ما، لا يغيّر رأيه بسهولة. كان يعتقد أن الحل الأخير يجب أن يكون بيده والرأي النهائي رأيه، وقد أثبتت الحياة أنه على صواب.

أسبغ عليه سرواله الأسود مظهراً قاسياً وزاد هذا الانطباع قامته الفارعة، وشعره الأسود الخشن وتقاطيع وجهه الحادة وشكل ذقنه

الصارم. ولم يتنبه زاكاري لهذا يوماً، بالرغم من نظرات الانزعاج التي يرمقه بها المارة في الشارع، فهو نادراً ما يلتفت إلى الآخرين، لانشغال ذهنه الدائم بعمله.

نادراً ما كان يذهب إلى لندن. ومنذ حوالى العام، انقطعت صلته بالنساء بعد ان اكتشف أن صديقته الاخيرة كانت تخرج مع رجل آخر في الوقت نفسه، وقد صرح لها زاكاري، وبكل قسوة، عن رأيه بها ولم يرها منذ ذلك الحين، كما لم تعد تخطر بباله إلا عندما يجد ما يخصّها في أرجاء كوخه.. كمشطها، أو منديلها الذي يفوح منه شذا عطرها، أو أحمر شفاهها...

حينذاك كان يلقي بالغرض بعيداً، وهو مقطب الجبين. لكن صورة عينيها المتألقتين، وفمها المغري كانت تعود لتملأ جوّ الكوخ، مما يدفعه إلى العمل بكد لينسى ذكراها.

اعتاد عندما لا يرسم، أن يعتني بالحديقة، حيث زرع حاجته من الخضار والفواكه، وأن يهتم بدجاجاته التي تزوده بالبيض الطازج. وهكذا عاش ببساطة، معتنياً بشؤون بيته بنفسه.

بنى الكوخ الذي يعلوه القرميد الأحمر قبطان سفينة متقاعد في عهد الملكة آن، وقد حافظ فيه على أجواء البحر، فجعله مطلاً على شاطىء منطقة «سافولك» التي تعصف فيها الرياح والعواصف غالباً، فتتغلغل في الألواح الخشبية القديمة التي تقرقع وتتأوه.

لم يتغير ذاك المنظر منذ ثلاثمئة سنة، فما زال مسكناً وحيداً موحشاً مطلاً على بحر عاصف، تمتد خلفه حقول تخترقها دروب ضيقة ملتوية.

كانت قرية «تيرتون» تبعد ميلاً عن الكوخ، بينما تبعد أقرب المدن، وهي مدينة صغيرة تدعى «وينبري»، أكثر من عشرين دقيقة في السيارة.

جذبت العزلة زاكاري إلى هذا البيت، إذ يمكنه أن يعمل دون ان يقاطعه

أحد أو أن يصرف ذهنه عن العمل شيء.

كان النهار في آخره عندما خرج زاكاري من الكوخ، مقفلاً الباب خلفه، وشاخصاً بناظريه إلى السماء. ما زل الوقت باكراً لظهور الشفق. ترى أتحمل تلك الغيوم أمطاراً؟ لم يكن يحب قيادة السيارة طويلاً تحت المطر، لا سيما في الليل. بان العبوس في عينيه الرماديتين وهو ينظر إلى ساعته، سيكون في لندن عند السابعة، وقد لا ينهمر المطر قبل ذلك.

وفي الطريق أخذ يفكر في المعرض القادم وما يصحبه عادة من هرج ومرج، فلوى شفتيه بسخرية.

كان ليو يعشق هذه الاجواء، ويجد متعة كبرى في قراءة أقوال الصحف عنه، وفي حضور الحفلات الإجتماعية ومتابعة مقالات النقاد عن المعرض. في حين كان زاكاري يكره هذه الأمور ويبتعد عنها. كانت هذه المناسبات تروّعه، وندم إذ ترك ليو يقنعه. لم يكن هذا المعرض الأول له، إنما الثالث، ويعود الأخير إلى سنوات خلت. وكانت هذه الرسوم رائجة لسهولة فهمها.

في هذه اللحظة، لمح زاكاري بطرف عينه شيئاً أبيض فأدار رأسه بحركة غريزية، وعاد فلمح ذلك البياض السابح في الهواء، إلى جانب الطريق، وراء سياج الزهور.

وأمعن النظر فلم تتضح هذه الرؤيا. أهي ورقة تطير في الريح؟ أم طائر أبيض؟ أم بومة؟

ضغط بقدمه على الكابح، وعندما أبطأت سيارته، حدق ملياً. اقشعر جسمه عندما تقدم ذلك البياض بمحاذاته من الناحية الأخرى للسياج، لا، ليس طائراً، ولا بومة، فما هو إذن؟

لم يكن زاكاري يؤمن بالأشباح. لطالما كره ما لا يمكنه تفسيره بشكل منطقي. فقد كان فناناً ذا نظر ثاقب يدرك إمكانية ان تخدعه عيناه. لا بد من

وجود تفسير لما يرى، ولكن ما هو؟

أخذت سيارته تبطىء حتى كادت تقف عندما وصل إلى بوابة رأى من خلالها حديقة. شاهد في آخر الحديقة منزلاً كبيراً أبيض، تمتد أمامه طريق تظللها الاشجار. ودنا المجهول منه، واستدار نحوه، فأدرك زاكاري فجأة كنه ما رآه. أخذ يضحك بشيء من الغضب بعد ان اكتشف مدى حماقته، فقد ظن للحظة أنه يرى شبحاً.

لكن ما تراءى له لم يكن سوى فتاة. . . فتاة صغيرة رشيقة، ينسدل شعرها الطويل الأسود على كتفيها ويحيط بوجهها الأبيض. ولم تكن تنظر إلى الطريق فأخفى شعرها قسمات وجهها، لذا لم يدرك أنه كان يرقب إنساناً يسير خلف السياج، كل ما رآه منها كان الثوب الأبيض الذي ارتدته. . ثوباً واسعاً ذا كمين طويلين. لقد رآها الآن، بوضوح، وراء البوابة تحدّق في الطريق. ألقت نظرة عابرة على زاكاري، ثم تحوّلت عيناها القاتمتا الزرقة عنه من دون اكتراث، لكي ترقب الطريق أمامه، الطريق المؤدية إلى «وينبري».

تابع زاكاري طريقه عابساً، ولو لم يكن على عجلة من أمره لوقف يسألها إن كانت بشراً، أم جنية تنفث سحرها في شفق الغروب! ضحك مجدداً، هازئاً من الافكار التي راودته. ففي مثل هذا الوقت يسرح الخيال، لا سيما إن كان خصباً.

لم تكن شبحاً ولا جنيّة، إنما كانت تتمتع بجمال غريب وفريد. لم يستطع أن يمنع نفسه عن التفكير فيها والتساؤل عما كانت تفعله وحدها في تلك الحديقة الغارقة في حمرة الشفق. من كانت تنتظر؟ أتراه حبيباً؟ كان في انتظارها نوع من اللهفة، إنما حدثته غريزة الفنان فيه بأن ترقبها لا يخفي عاطفة محمومة، أو مشاعر غرام، بل شعوراً آخر مختلفاً كلياً. فما هو؟ قطب جبينه وهو يحاول أن يفهم ما جعل ملامحها أشبه بملامح راهبة! إنه

نقاء وجهها الأبيض، وعينيها الواسعتين الزرقاوين، وفمها الوردي. بدت وكأنها وصلت من كوكب آخر، من عالم روحاني.

تذكر زاكاري دانا، مقطباً. . . كان هناك فرق شاسع بين الفتاتين، إن دانا . . .

وفي تلك اللحظة، انعطفت الطريق بشكل حاد، وفيما زاكاري ينعطف بسيارته، إذ بسيارة أخرى حمراء اللون تسير بسرعة جنونية تتقدم باتجاهه، لتنحرف بشكل خطير. تصلب جسم زاكاري وأخذ يشتم وقد شحب وجهه. ضغط على الكابح بعنف، ومال بسيارته بسرعة إلى جانب الطريق، لكنه لم يستطع تجنّب السيارة الحمراء، فصدمته بعنف جعل سيارته تنزلق لتخترق السياج.

دفعته الصدمة إلى الأمام، بعنف، فارتطم صدره بالمقود. لكن حزام الأمان ثبّته ورده إلى الخلف. واصطدم رأسه بجانب الباب فشعر بالدوار للحظة، ما لبث بعدها أن اشتم رائحة لاذعة حادة.

آه، يا إلهي . . تأوه وهو يستجمع ما تبقى من قواه بعد أن ميّز رائحة البنزين.

أخذ يكافح في سبيل التخلص من حزام الأمان، وقد شحب وجهه. ولكن ما أن تمكن من ذلك حتى دوّى انفجار واندفع أمامه جدار من اللهب. ومن ثم اقتربت النيران فصرخ زاكاري بألم بالغ وهي تلفحه ورفع يديه بسرعة ليحمي وجهه من اللهب، ولكن عبثاً . . .

***

ارتفع صوت جرس الهاتف حين أوشكت لويزا على بدء جولتها التي تأجلت مراراً بسبب الأزمات المتتالية. تأوهت وهي ترفع السماعة، متسائلة عما يجري. كان صوتها هادئاً رقيقاً، لا يفصح عن أفكارها وهي تقول: «قسم الحروق».

www.elromancia.com

- الأخت جيلبي؟

كان الصوت مألوفاً، فظهرت على وجهها وفي عينيها ابتسامة ناعمة غيرت ملامحها. وردت برزانة: «نعم، يا دكتور هالوز».

كانا يحرصان، في المستشفى، على إبقاء علاقاتهما رسمية. بدا صوت دايفيد متعباً، ولا عجب في ذلك، فهو في غرفة العمليات منذ ساعات.

- إنه في غرفة الإنعاش، وسينقل إلى قسمك بعد نصف ساعة تقريباً، لقد أرسلت إليك الأوراق. واجه العملية بشكل جيد جداً، إنه قوي صلب، وسيخرج من المحنة بسلام، لكن صدمة ما بعد العملية متوقعة طبعاً. إن اجتاز الساعات الأربع والعشرين التالية من دون أي انتكاس، فاحتمال الشفاء كبير.

أخذت لويزا تستمع إليه مقطبة الجبين، وقد امتلأت عيناها الزرقاوان عطفاً. لقد مضى عليها في هذا القسم سنوات عدة واعتادت رؤية رجال ونساء واطفال، يعانون من حروق مروّعة. لكن مشاعرها لم تتجمد قط، فهي ما زالت تتأثر لما تراه.

- لحسن الحظ لم نستعجل في المغادرة. بإمكاني أن أعين له ممرضة خاصة تسهر عليه طوال الليل، وستعتني بهذا الرجل المسكين قدر الامكان.

- أنا واثق من ذلك، فلديك فريق من الممرضات الكفوءات.

وسكت قليلاً قبل أن يضيف بلهجة شخصية وبصوت منخفض: «هل ما زلت مصممة على مرافقتي للرقص مساء السبت؟».

دعاها منذ أسابيع، ولكنها كانت تتردد، وتحذره من أنها قد تعمل في عطلة نهاية الاسبوع، لأن الممرضة التي تنوب عنها ستذهب في إجازة. كما أن ممرضة أخرى في قسمها متغيّبة في إجازة مرضية لكسر في ساقها. وهكذا لا يمكن للويزا أن تعرف مسبقاً إن كانت ستتمكن من تأمين ممرضة مشرفة للقسم ليلة السبت.

فقلت بحيرة:

- حسناً، عليّ أن أجد حلاً لهذا، يا دايفيد. لقد سوّيت الأمر مع الأخت جنكنز من قسم الجراحة وستنوب عني لبعض الوقت. سبق وأمضت في هذا القسم مدة طويلة قبل انتقالها إلى قسم الجراحة، هي بالتالي تعرف نظامه جيداً. ستقوم بالمناوبة من الساعة الثامنة حتى الثانية صباحاً ثم أستلم أنا العمل.

فقال بسرور جعلها تتصور الابتسامة ترتسم على وجهه.

- سترافقيني إلى الحفلة إذن؟

لم يكن دايفيد هالوز وسيماً، لكنه يتميّز بوجه هادىء مألوف وعينين بنيتين دافئتين، وبنظرات ودودة مباشرة وفم حازم إنما بلطف. كان أحد أكثر موظفي المستشفى شعبية.

- أود ذلك! وشكراً لهذه الدعوة، يا دايفيد.

اعتادت لويزا في الأشهر الأخيرة أن تخرج معه لتناول العشاء. لكنهما كانا يعلمان أن هذه الدعوة مختلفة. في حفلة المستشفى الراقصة هذه، سيظهران معاً وسيكونان محط انظار الجميع.

قال دايفيد متثائباً: «حسناً، سأذهب إلى فراشي الآن، لكنني الطبيب المناوب الليلة. فإذا احتجتم إليّ...».

- لا بد أنك منهك، يا دايفيد المسكين... أرجو ألا نضطر لإيقاظك... تصبح على خير.

وضعت لويزا السماعة ثم غادرت مكتبها. كانت العتمة تلف القسم بعد ان أسدلت الستائر، وقد جلست إحدى ممرضاتها قرب مريض لا يزال في حالة الخطر. رأت بعض الأسرة الخالية وقد نزعت عنها الأغطية وتصاعدت منها رائحة المطهرات. وفي أسرّة أخرى، رقد المرضى جامدين كالمومياء وقد رفعت الأغطية عنهم كي لا تلقي بثقلها على أجسادهم

المعذبة. كانوا يخافون الحركة، فاستلقوا أسرى آلامهم لا يبدو عليهم من علامات الحياة سوى بريق عيونهم. سارت لويزا من سرير إلى آخر لا يسمع لخطواتها صوت، وأخذت تتحدث برقة إلى المستيقظين من المرضى، مسرّية عنهم، واعدة بما يخفف الألم. كما وقفت تتأمل أولئك الذين استغرقوا في النوم قبل أن تتابع سيرها.

كانت تحب العمل ليلاً، اذ يتملكها شعور فريد نحو القسم. في تلك الساعات الطويلة المظلمة حيث ينام العالم، وتبقى وحدها مستيقظة، تشعر وكأنها أقرب من المريض. فأثناء النهار، يأخذ حذره، ويخفي مخاوفه وقلقه ولهفته. ولكنه، أثناء الليل، يحتاج إلى من يطمئنه، ويخفف عنه ويشاركه آلامه وأوجاعه. لقد اختارت التمريض لأنها أرادت مهنة هي أكثر من مجرد وسيلة لجمع المال. أرادت ان تخدم من حولها، وقد جعلتها مساعدة المرضى تشعر بأنها تنجز عملاً هاماً.

عادت إلى مكتبها حيث أنهت بعض الأعمال المكتبية، وفيما انكبّت على عملها، مقطبة الجبين، سمعت صوتاً مرحاً يقول من خلفها:

ـ لقد عدت من مطعم المستشفى يا أخت جيلبي، حيث قدموا لنا فطائر السمك مرة أخرى. أتمنى لو يضعون فيها شيئاً من السمك! فقد كانت محشوة بالبطاطا وبمرق البقدونس فقط.

كشرت لويزا وهي تتخيل الطبق: «أرجوك! إنك تشعرينني بالغثيان».

ـ هل أرسل الأخريات الآن؟

ـ نعم، ثم أعطي السيد غراهام حقنته، من فضلك.

خرجت ممرضتاها لتناول طعامهما، فحضرت لويزا كوباً من الشراب الساخن الذي تتناوله دون حليب وسكر ليساعدها على السهر ليلاً. لم تكن تأكل قط في مطعم المستشفى، إذ كانت تجد طعامهم ثقيلاً، وكان من

العبث الشكوى أو الاحتجاج على طعمه، فقد كانت الميزانية محدودة. واعتادت لويزا ان تأكل في مكتبها الفواكه أو اللبن أو المكسرات، وتتناول وجبتها الاساسية في البيت قبل حضورها إلى العمل.

تصاعد صوت جرس الهاتف مخترقاً السكون، فجفلت وانزلق قلمها على الورق. كانت أعصابها متوترة للغاية هذه الليلة، فتناولت السماعة محاولة تمالك نفسها: «قسم الحروق».

ـ هنا قسم العمليات، سننقل السيد ويست إلى قسمكم الآن.

ـ حسناً، نحن مستعدون لاستقباله.

كانت لويزا تتكلم وهي تنظم أوراقها وتضعها في درج ثم تقفله.

وضعت لويزا السماعة ووقفت. رأت من خلال الباب السرير المرتب الجاهز لاستقبال المريض الجديد، وسمعت جلبة في غرفة الغسيل خلف مكتبها فدفعت الباب.

كانت الممرضة أنيتا كارتر مشغولة بتعقيم الأواني، فعلت الحمرة وجهها عندما رأت رئيستها تنظر إليها.

ـ هل أنت بحاجة إلي، يا أخت جلبي؟ آسفة لانشغالي بهذه.

ـ سيحضرون المريض الجديد الآن، دعي هذا العمل وسأطلب من الممرضة بريت انجازه عند عودتها من المطعم. أريدك أن تبقي مع هذا المريض، فسيكون بحاجة إلى مراقبة مستمرة. يمكنك تمييز دلالات الصدمة وهذا ما يهمنا بالنسبة له. إذا رأيت أي علامة تدعو إلى القلق، فلا ترددي واقرعي جرس الأنذار.

إستقامت الممرضة كارتر في وقفتها تسوّي ملابسها، وغطاء رأسها الذي يخفي شعرها الجعد. كانت ممرضة طيبة بالرغم من افتقارها للأناقة والمهارة وكانت محبوبة أيضاً، مما جعل لويزا تبتسم لها وهي تتركها.

سمعت الاثنتان صوت حركة المصعد.

www.elromancia.com

- ها هم قد أقبلوا.

وتقدمت لويزا للقاء القادم الجديد، بينما أسرعت الممرضة كارتر تفتح الباب الدوّار لكي يتمكنوا من إدخال العربة التي يرقد فوقها المريض إلى القسم. استلمت لويزا ملف المريض من الممرضة المرافقة له، وألقت نظرة سريعة على ذلك الجسم المتصلب الذي كان ممدّداً فيها. كان غائباً عن الوعي، وأجفلت لرؤيته، لكن خبرتها أعلمتها أن آثار الحروق يمكن علاجها في الوقت المناسب لتختفي عن وجهه.

تمتمت وهي تنظر إلى الملف:

- زاكاري ويست، عمره أربعة وثلاثون عاماً. حسناً! يقول الدكتور هالوز إنه قوي وسيتجاوز المحنة. لا أدري أيّ نوع من المرضى سيكون.

فأجابت الممرضة المرافقة له:

- إنه ليس سهلاً، لقد رأيته عندما أدخل المستشفى... لم يكن قد فقد وعيه بعد، فملأ المكان بشتائمه.

فعلقت لويزا شاردة وهي تحدّق في بنية هذا الرجل الغائب عن الوعي القوية: «هذا أمر عادي».

- هذا صحيح، لكنه ترك لدي انطباعاً بأنه رجل غضوب للغاية. وإذا صادف يوماً الرجل الذي سبّب له الحادث فسيرتكب جريمة لا محالة.

قطبت لويزا جبينها وأغلقت ملف الملاحظات.

- شكراً لك. يمكنك أن تعودي إلى قسمك الآن.

ثم سارت في الممر لتطمئن إلى حال المريض، فقد تسبب له أقل لمسة آلاماً مبرحة بالرغم من غيابه عن الوعي، وذلك لدقة العملية التي أجريت له.

عندما استقر أمر المريض، عادت لويزا إلى مكتبها لكي تنهي عملها. كانت تتمنى أحياناً لو أنها لم تستلم مسؤولية القسم، اذ كانت تفضل

التعامل مع المرضى مباشرة، على القيام بالاعمال المكتبية.

وقبيل الفجر، قامت بجولة أخرى بين المرضى. كانت الممرضة أنيتا كارتر لا تزال إلى جانب سرير زاكاري ويست.

تفحصت لويزا الملاحظات المدونة، وكانت الممرضة تسجل نبضه وحرارته كل ساعة، فلم تلحظ أي تغيرات...

- ألم يسترد وعيه بعد؟

- ظننت ولمرات عدة...

سكتت الممرضة فجأة عندما بدرت من المريض حركة طفيفة، لا بد أن صوتهما أزعجه، فقد فتح جفنيه المتورمتين، والتمعت عيناه الغاضبتان، ثم صدرت عنه صرخة مخنوقة.

سمعت لويزا في صوته غضباً وألماً مبرحاً، فانحنت عليه تتمتم كلمات مواسية من دون أن تلمسه لأنها تعلم أن أي لمسة تسبب له عذاباً هائلاً. لكن صوتها المنخفض الرقيق جعل عينيه تتحولان إليها بعنف: «ماذا فعلتم بي؟».

- إننا نعتني بك، يا سيد وست، فلا تقلق.

فردّ بحدة: «ابتعدي عني».

تراجعت وكأنه صفعها، ثم قالت للممرضة:

- أعطيه حقنة الدواء الآن.

وما هي إلا لحظات حتى عاد المريض إلى النوم بعد أن استرخى جسمه، فتنهدت لويزا وابتعدت عنه.

عندما عادت إلى مكتبها، إتصلت بقسم آخر، بأصابع مرتجفة:

- مرحباً بيت. أنا لويزا، كيف حاله الآن؟

- حالته ممتازة، يا لويزا، فلا تقلقي. أصيب بصدمة خفيفة وببعض الرضوض، ما من شيء خطير. وأظنه سيغادر المستشفى اليوم، هل

ستزورينه فيما بعد؟

ـ نعم، قبل ذهابي إلى بيتي.

وضعت السماعة وقد ترقرقت في عينها دمعة مسحتها بغضب.

* * *

احاطت بزاكاري ويست حلقة من نار. تصاعد اللهب أمامه، وتناثرت شظايا الزجاج اللامعة كالخناجر لتندفع نحوه، كما لفحت جسمه ووجهه حرارة بالغة، أفقدته بصره.

أنا أعمى، أنا أعمى، أنا أعمى... ردد هذه الكلمات في أحلامه صارخاً، لكن أحد لم يسمعه.

كانت تظهر هي أحياناً، وتسبح في الجوّ إلى جانبه.. خفيفة كريشة بيضاء، كحمامة سلام، أشبه بحلم، فتهدئه وتواسيه. ويناديها من وسط حلقة النار، فتلتفت نحوه وترمقه بنظراتها. شعر أسود طويل يتطاير خلفها، وجه حلو رقيق، عينان واسعتان قاتمتا الزرقة تشعان عطفاً وحناناً. ويتلاشى الألم، فيتنهد زاكاري، وهو يمدّ يديه نحوها وإذا بها تتلاشى مرة أخرى، فتعود الأحلام المزعجة لتقض مضجعه.

استطاع زاكاري ولمرة واحدة، أن يفتح عينيه ويناديها، لكنه لم يرها، وإنما رأى وجوهاً أخرى، وجوهاً غريبة تحدّق فيه.

نظر إليهم بغضب، من هم؟ وماذا حدث لذات الرداء الأبيض؟ حاول أن يسأل، لكن شفتيه حبستا كلماته. انحنى فوقه أحد تلك الوجوه ليقول شيئاً لم يسمعه جيداً. كان وجهاً بارداً شاحباً أشبه بوجه راهبة، وكرهها زاكاري من النظرة الأولى بشعرها المربوط وفمها المتوتر.

ـ أين أنا؟ وماذا حدث؟

حاول أن يسأل لكن الكلمات خرجت من بين شفتيه مبهمة، حاول مرة أخرى وفي صوته نبرة اتهام: «ماذا فعلتم بي؟».

فتحت فمها وردت عليه، لكنه لم يسمع أي كلمة، لم يكن يريد سوى أن تبتعد عنه. وهذا ما قاله لها فتصلب جسمها.

تحدثت إلى الفتاة الأخرى بصوت خافت، ثم شعر زاكاري بوخزة ألم. حملق فيهما، ما هذا؟

ماذا...؟ لكنهما غابتا من جديد. وغرق هو في أحلامه داخل حلقة النار. أراد أن يصرخ لكنه لم يستطع، فقد عاد الألم ينهش جسده.

حاول أن ينظر من خلال اللهب، فرأى الفتاة ذات الرداء الأبيض، تبتسم له بحنان، وإذا بخوفه يتلاشى اذ تصوّرها ملاكاً، ملاكاً فعلاً...! لم لم يدرك ذلك من قبل؟ أنا ميت، وهي ملاك.

* * *

www.elromancia.com

عندما غادرت لويزا القسم، بعد انتهاء عملها، توقفت عند القسم الحادي عشر. كان المرضى قد تناولوا فطورهم واستلقوا يقرأون الصحف أو يتبادلون الأحاديث، فيما باشرت الممرضات عملهن الصباحي المعتاد. اتجهت لويزا إلى مكتب الممرضة المسؤولة لتلقي عليها التحية قبل أن تدخل القسم.

كانت بيت داوليش زميلتها في مدرسة التمريض، وقد غادرت القسم منذ وقت طويل بينما حلت محلها ممرضة لم تكن لويزا تعرفها جيداً.

ـ نعم. أعلمتني الأخت داوليش أنك ستأتين. جيد، يمكنك المكوث مع المريض قدر ما تشائين، مع أنني أعتقد أنه سيغادر المستشفى عصر هذا اليوم. كان يمكن لحالته أن تكون أسوأ. من هو الشخص الآخر الذي أرسلوه إلى قسمك؟ سمعت أن إصابته خطيرة جداً. احتراق سيارة؟ لا أعلم كيف يمكنك العمل في ذلك القسم، لقد عملت فيه لفترة فكرهته. لا بد أن أعصابك من فولاذ.

لاحت ابتسامة فاترة على شفتي لويزا وقالت:

ـ لقد اعتدت عليه، جاء مريضنا خلال الليل، وحالته كما كنا نتوقعها.

فنظرت الممرضة إليها بجفاء:

ـ نعمم... الأمر بهذه السهولة، أليس كذلك؟ حتى وإن اجتاز المحنة، فهذا لا يكفي. ما زالت الطريق أمامه طويلة طويلة.

فردت لويزا وهي ترتجف: «نعم، حسناً، سأتركك الآن لعملك...».

ثم سارت بثبات إلى آخر سرير في القسم. كان الرجل الجالس فيه يسند ظهره إلى الوسائد، ويحدق في الفراغ، وقد شحب وجهه. أدار رأسه ينظر إليها وهي تجلس على كرسي قرب السرير:

ـ لويزا...

ومدّ يده يشدّ على أصابعها إلى درجة آلمتها: «هل... هل هو...؟».

فقالت بصوت منخفض أجش: «إنه حيّ... لا تقلق يا أبي، فسيعيش».

* * *

٢ ـ هي الداء والدواء!

نامت لويزا بشكل متقطع، إذ لم تعتد أن تنام في النهار نوماً عميقاً. نهضت من سريرها عند العصر، وأكلت تفاحة وشطيرة واحتست فنجاناً من الشاي، ثم ارتأت أن تقوم بنزهة على قدميها في الهواء الطلق لتجدد حيويتها. كانت تسكن في شقة مؤلفة من غرفتين صغيرتين تقع على مسافة قريبة من المستشفى ومن شوارع «وينبري» المخصصة للمشاة، التي تكثر فيها المحال التجارية والمقاهي.

كان النهار مشمساً، والناس يتجوّلون بين المتاجر. انتهت من التسوّق في «السوبرماركت» الكبير القائم في وسط الساحة، وقفلت عائدة إلى بيتها. وفي طريق العودة، كادت تصطدم بفتاة شقراء تكاد تكون في مثل سنها.

ـ آه، هذا أنت!

لم تكن لهجة الفتاة تحمل أي مودّة، بل كانت عيناها الخضراوان تشعان عداء.

فقالت لويزا ببرودة، وقد بدت الكراهية متبادلة: «مرحباً، نويل، هل عاد أبي؟».

ـ نعم، وكان عليّ أن أذهب لإحضاره. لقد رفضوا إرساله إلى البيت بسيارة إسعاف.

www.elromancia.com

- سيارات الإسعاف مشغولة جداً . . .

فقاطعتها الفتاة بغضب :

- لقد نقلوه إلى المستشفى في سيارة إسعاف، فلم لا يستطيعون إعادته بالطريقة نفسها؟ كان لديّ موعد عمل هام، كما لا يمكنني ترك المكتب متى شئت. وقد أحرجني إلغاء الموعد. وجلّ ما أرجوه هو ألا نخسر اتفاقية عمل لهذا السبب. اتصلت من المستشفى امرأة متسلطة جداً، فقد أصرت على أن نحضر لاصطحابه. ولا أدري لماذا لم يعد إلى البيت في سيارة اجرة، أو لماذا لم تحضريه أنت إلى البيت، فأنت تعملين هناك! ما كان هذا ليزعجك! قالوا إنك في بيتك، لكنني عندما اتصلت بك، لم يجبني سوى آلة التسجيل.

فأجابت لويزا، محاولة ألا تفقد أعصابها: «أنا أعمل ليلاً وعليّ أن أنام في النهار».

ردّت عليها نويل بحدة: «وعلي أنا أن أعمل لأن أباك لم يتكبد عناء إدارة الشركة! ولولا جهودي لأفلسنا في سنة. لقد ترك الأمور تتدهور لسنوات. . .».

- كفانا حديثاً عن أمور الشركة. كيف حال أبي؟ أتركته وحده؟ لا ينبغي أن يبقى وحده على الإطلاق، إنه حزين جداً.

- لا تعلّميني ما عليّ فعله! فأنا لم أعد سكرتيرة أبيك بل زوجته، ولا أحتمل معاملتك لي باستعلاء.

- أنا لا أفعل! لكنني لا أظنك تدركين مدى تأثير الصدمة عليه . . . أردت أن أوضح لك الناحية الطبية . . .

- حسناً، لا أريد أن أسمع. فأنا لست واحدة من ممرضاتك، تحركينها بإشارة من إصبعك.

لم يكن يسرّها أن تنظر إليها زوجة أبيها بمثل هذه الكراهية. وشعرت

لويزا إزاء هاتين العينين الخضراوين بما يشبه الغثيان. كانت نويل غاية في الجمال، لكن جمالها هذا سطحي برأي لويزا.

عندما توظفت نويل في شركة أبيها كسكرتيرة، لم تشعر لويزا نحوها بالارتياح، ولم يخطر في بالها أن نويل تهتم لأمر أبيها . . . فهو يكبرها بأكثر من عشرين عاماً! ولسبب ما لم تحبها نويل هي أيضاً. وحين اعترف لها أبوها بعلاقته مع سكرتيرته، فوجئت لويزا وتملكتها الصدمة، ولم تستطع إخفاء مشاعرها. لكن كان عليها أن تخفيها وتمنت لو أنها فعلت. كما تمنت بمرارة لو تحب نويل، ولو تصبحا صديقتين، وذلك من أجل أبيها. لقد حاولت ذلك مراراً عندما أدركت أن علاقتهما جادة وأن نويل ستتزوج أباها. ولكن، عبثاً، فقد كانت نويل تكرهها ولم تشأ مصالحتها.

واضافت نويل، وهي ترمقها بنظرة حادة لاذعة:

- على أي حال، ليس وحيداً في البيت، إن السيدة «نورث» في البيت تنظفه، وقد طلبت منها أن تعتني به. رفض التوجه إلى سريره، وفضّل الإستلقاء على الأريكة لمشاهدة التلفزيون، ولم ألاحظ أي شيء غير عادي، وإذا كان حزيناً فهو يستحق ذلك لقيادته السيارة كالمجنون. كاد يقتل ذلك الرجل!

شحب وجه لويزا إذ أدركت أن كلامها صحيح: «لكنه لم يفعل والحمد لله».

- لو حدث ذلك لكان الذنب ذنبك.

أجفلت لويزا، ولم تقدر على الإنكار، ثم عادت نويل تقول متشفية:

- لو أنك لم تتصلي بأبيك وتحدثي كل تلك المشاكل لما ترك الحفلة قادماً إليك كالمجنون.

ازداد شحوب وجه ليزا. كان هذا صحيحاً، ولا فائدة من الندم الآن، لو كان بإمكانها العودة إلى الوراء لغيرت الأحداث الأخيرة التي عصفت

بحياتها ولم تتمكن من تجنبها. لقد اتصلت بأبيها وأظهرت له خيبة أملها، فأسرع إلى البيت ليخفف عنها، ولو لم يفعل، لما وقع ذلك الحادث ولما استلقى زاكاري ويست على سرير في المستشفى يتأرجح بين الحياة والموت، ولما وقف أبوها اليوم أمام العدالة ليعاقب على قيادته الخطرة... أو ربما على اسوأ من ذلك، اذا لم يخرج زاكاري ويست من المحنة بسلام. وشعرت ببرودة تسري في عروقها، ماذا لو لم ينجُ؟... لا، لا يمكنها التفكير في ذلك.

وعادت نويل تقول: «لأنك انسانة أنانية أفسدك التدليل».

فنظرت لويزا إليها ببلادة. هل هي حقاً كذلك؟ كان عليها أن تتصرف بحكمة أكبر بدلاً من أن تفقد أعصابها لمجرد أن أباها نسي عيد ميلادها وخرج مع زوجته.

لكنها شعرت حينذاك بألم عميق، وبإهمال كبير، لطالما كان أبوها شارد الذهن، فتذكره عادة بعيد ميلادها، لكنها تكاد لا تراه هذه الأيام، وقد اتصلت به منذ أسبوع لتذكّره، وتسأله أن يتناولا طعام الغداء معاً، لكنه لم يكن في المنزل، فاضطرت إلى إبلاغ نويل، التي لم تعلمه باتصالها، بل أغرته ليرافقها إلى غداء عمل. كانت نويل مصممة على إخراج لويزا من حياة أبيها، ولم يعِ الأب المعركة التي كانت تدور بينهما من أجله.

استغربت لويزا أن تتفهم الأمر من وجهة نظر نويل، فلا بد أن سن ابنة زوجها يحرجها، ويظهر بوضوح فرق السن بينها وبين زوجها. ولعلها تغار من حب الأب لابنته، ذاك الحب الذي يذكّرها بزوجته القديمة.

كان الشبه بين لويزا وأمها واضحاً كما تبيّن لنويل من الصور التي ملأت البيت. فقد كانت آنا جيلبي، والدة لويزا، امرأة رائعة الجمال. توفيت وهي في الأربعين من عمرها، تاركة وراءها ابنتها الوحيدة لتذكّر هاري بالمرأة التي تزوجها وهو في العشرين من عمره. أمضى أبوها بعد

وفاتها سنوات من الوحدة، لذا استطاعت لويزا أن تفهم سبب رغبته في الزواج من جديد، رغم أن اختياره أذهلها وأزعجها. كما فهمت مشاعر نويل، لكن تفهمها لم يسهّل الأمر عليها، ولطالما كانت لويزا مولعة بأبيها، لا سيما منذ وفاة أمها، وقد صعب عليها الابتعاد عنه.

حاولت تقبّل هذا الوضع الجديد، من أجل أبيها. وأرادت أن تراه سعيداً من جديد بالرغم من انزعاجها لزواجه من فتاة في مثل سنها.

ليتها لم تستاء حين أدركت أن أباها نسي عيد ميلادها وأنه لن يتمكن من العودة في الوقت المناسب ليراها.

لطالما كان عيد ميلادها يوماً فريداً، يحوّله أبوها إلى يوم ساحر. اعتادا تناول الغداء في مكان مميز ثم تمضية بقية النهار معاً. كان هذا عيدها الأول بعد زواجه، وقد أدركت أن عاداتهما معاً ذهبت إلى غير رجعة، فأحست بالأسى والألم. وعندما علمت بمشاريعه، تصرفت بطريقة صبيانية فاتصلت به في الحفلة، لتشعره بالذنب.

ما كان عليها أن تفعل ذلك... ولكن أنّى لها أن تعرف أن تصرفها هذا سيؤدي إلى مثل هذه الكارثة؟؟

قالت نويل بحقد:

ـ كما سيخسر رخصة السوق لمدة عامين على الأقل، كما يقول المحامي. وهذا ليس بأسوأ الاحتمالات. حسناً، لن أتمكن من مرافقته بالسيارة حيث يشاء، بل عليه أن يستخدم سائقاً خاصاً. يمكنه أن يدفع أجره بالرغم من أنه يردد أن حالته المالية متردية. لم يكن بهذا البخل حين تزوجته. لو استخدم سائقاً، لما وقع ذلك الحادث، ففي مثل سنه يصبح الحكم على الأمور مغلوطاً بعض الشيء.

فتصلب جسم لويزا: «ماذا تعنين بقولك (في مثل سنه)؟ أبي لم يبلغ الخمسين من عمره بعد».

لم تكن نويل تراه متقدماً في السن حين تزوجته! فلطالما تحدثت عن شبابه الدائم، وطاقته وحيويته البالغة. . . وقد حافظ هاري على تلك الصفات طوال السنة الماضية إذ أخذ يعمل ويلهو ويسهر لكي يماشي زوجته الشابة. فإن لم يرافقها إلى حفلات الكوكتيل، والعشاء ولقاءات العمل، قصد ملاعب الغولف ليلعب مع الزبائن أو مع أشخاص تعرفهم وتريد أن تترك لديهم انطباعاً جيداً عن زوجها.

هزت نويل كتفيها قائلة: «لم تعد ردات فعله كما كانت».

ـ لعله يحضر الكثير من الحفلات! مما يجعله ينفق الكثير من الطاقة.

فحملقت زوجة أبيها فيها:

ـ أحسنت! ألقي اللوم عليّ! ستقولين إن الذنب ذنبي أنا، أليس كذلك؟ حسناً، هذا غير صحيح. . . فهاري يستمتع بالحياة الاجتماعية ولطالما استمتع بها، حتى قبل أن يعرفني.

لم تستطع لويزا إنكار ذلك، لأن أباها يتمتع بالحيوية والنشاط، ويحب رفقة الناس، لا سيما الشباب منهم. لذا وقع في غرام شقراء فاتنة كانت سكرتيرته، وقد شجعته نويل فلم يستطع هاري جيلبي مقاومة سحرها وفرصة أن يجدد شبابه.

وتنهدت لويزا: «نعم، أعلم ذلك».

ثم عضت على شفتها ونظرت إلى زوجة أبيها متضرعة وأضافت: «نويل، لماذا نتشاجر دائماً بهذا الشكل؟ لا سيما الآن، وأبي في ورطة. . . سيكون بحاجة إلينا معاً خلال الأشهر القادمة، ألا يمكن أن نكون صديقتين؟».

لكن ملامح نويل الرائعة لم تلن، بل التمعت عيناها الخضراوان حين قالت:

ـ تسببت بما يكفي من الأذى، فاتركينا وشأننا. إن هاري لي أنا الآن

وليس لك.

استدارت لتبتعد، لكنها عادت ووقفت ثم سحبت جريدة من حقيبتها الجلدية، وناولتها إياها قائلة: «هل قرأت هذه؟».

ولم تنتظر جواباً، بل تابعت طريقها وتركت لويزا تحدق في صورة زاكاري ويست التي تعلو عنواناً يقول: (حادث يلغي معرض ويست).

التفتت لويزا تبحث عن مكان لتجلس فيه وقد ازداد قلقها واكتئابها. توجهت مرتجفة نحو أحد المقاهي وتهالكت على مقعد بجانب الباب، وسألتها النادلة وهي تتقدم نحوها:

ـ ماذا تطلبين؟

ـ قهوة من فضلك.

ـ هل ستأكلين شيئاً؟

شعرت لويزا بدوار طفيف فتمتمت تقول:

ـ شطيرة جبن وسلطة، من فضلك.

توارت النادلة، فيما فتحت لويزا الجريدة أمامها، وعندما استوعبت ما ورد فيها، كانت النادلة قد عادت بما طلبته. طوت لويزا الجريدة بأصابع مرتجفة، وحاولت الإستمتاع بطعامها، لكن مذاقه في فمها استحال كمذاق التراب والرماد، فقد شغل بالها ما قرأته لتوّها.

جاءت نتيجة الحادث أسوأ مما تصورت، كان زاكاري ويست فناناً مشهوراً على ما يبدو، وقد تحدثت الجريدة عن المبالغ الطائلة التي دفعت في الماضي ثمناً للوحاته.

وعندما وقع الحادث، كان زاكاري ويست ينقل لوحاته إلى لندن في سيارته ليعرضها في معرض كبير يملكه تاجر لوحات معروف. كان من المتوقع أن يحدث هذا المعرض ضجة في عالم الفن، على حد قول التاجر. وقد انتظره عشاق الفن بلهفة منذ اشتهرت أعمال زاكاري ويست وأخذت

www.elromancia.com

تعود عليه بمبالغ كبيرة، لا سيما وأنه لم يعرض أعماله منذ سنوات. كان عالم الفن متشوقاً إلى اكتشاف مدى تطوّر فنه، من حيث النوعية والتقنية. ويضيف التاجر بشكل مأساوي: إن العالم لن يعرف ذلك أبداً، اذ قضت النيران على اللوحات التي انتجها زاكاري ويست في السنوات الأربع الأخيرة وألحقت بالفنان نفسه إصابات بالغة جداً.

سددت لويزا حسابها في المقهى وقد تملكها الرعب، ثم توجهت إلى بيتها حيث وضعت مشترياتها جانباً، واتصلت بأبيها تسأله بحنان: «كيف حالك اليوم، يا أبي؟».

فرد عليها مرتجفاً، وقد جفّ حلقه: «هل قرأت الصحف؟».

ـ أبي، أبي... لا ينبغي ان...

ـ لا ينبغي ماذا؟ أن أواجه ما فعلت؟ يا إلهي، عندما أفكر في...

فسارعت لويزا تتوسل إليه: «لا تفكر في ذلك، يا أبي، ليس الآن، فما زلت تحت تأثير الصدمة».

ـ وكيف أمنع نفسي من التفكير بذلك؟ رجل مثل هذا، نابغة كما تقول الصحف... كل تلك الموهبة وذلك العطاء... حطمته أنا....

ـ لم تكن تعلم ذلك.. يا أبي! لا تقلق، سيتجاوز المحنة، وعندما يتحسن سينجز أعمالاً أخرى، فهو ما زال شاباً...

لكن كلماتها هذه لم تكن نابعة من صميم قلبها، بل كانت تشعر بالذنب كأبيها، فأضافت:

ـ على أي حال، إنه ذنبي أنا وليس ذنبك.

ـ ذنبك؟ وكيف ذلك؟ أنا الذي كنت أقود السيارة وليس أنت.

ـ لكنني لو لم اتصل بك وأثير تلك الضجة لما هرعت أنت إليّ!

ـ لكن هذا لا يجعل الذنب ذنبك، يا لويزا، فأنا من كان يقود السيارة. وقد كنت أشعر بالنعاس... لم أغفُ أثناء القيادة طبعاً، لكنني

أعرف أن تصرفاتي كانت متأثرة بإحساسي هذا. كانت ردات فعلي أبطأ من المعتاد، كما كنت أدرك في أعماقي أنني أقود بطيش، فقد زدت السرعة عند المنعطف، مما جعلني اندفع مباشرة نحوه من الجهة الأخرى للطريق... وانت لا علاقة لك بهذا الأمر. كانت أعصابي متوترة... فقد تشاجرت مع نويل... و... آه، حسناً، لا داعي لذكر ذلك، لكنه ذنبي أنا، يا لويزا! ولا ينبغي أن تلومي نفسك على الإطلاق.

لكنها بقيت تلوم نفسها، وكانت لا تزال متوترة حين دخلت القسم ذاك المساء، فلم تستطع الابتسام لزميلتها ماري بيكر، التي سألتها باهتمام: «ما بك؟ لا تبدين على ما يرام».

كانت ماري امرأة متزوجة وأماً لولدين. وهي تعمل في المستشفى منذ خمسة عشر عاماً، وتتميز بوجهها البشوش، وطباعها اللينة ورقتها ولطفها. وقد لمست لويزا ذلك في خلال تدريبها في هذا القسم، حين كانت تلميذة جديدة قلقة وعديمة الخبرة.

فأجابت لويزا بسرعة، محاولة اخفاء كذبتها: «أنا بخير».

وبالرغم من لطف ماري، كانت لويزا تشعر عندما تتعامل معها، وكأنها تلميذة، فلا تستطيع الافصاح لها عمّا في نفسها: «إنه صداع بسيط فقط...».

فقطبت ماري جبينها:

ـ هل تنامين كفاية؟ لن أذكّرك بضرورة أخذ قسط من الراحة لتتمكني من تأدية عملك ليلاً، أليس كذلك؟

فأجابت لويزا بعبوس:

ـ لا. فأنا أنام جيداً، لا تقلقي. كيف كان نهاركم؟ هل ثمة مرضى جدد؟ هل خرج أحدهم؟

لوت ماري شفتيها، وأخذت تتلو التقرير اليومي، مطلعة لويزا على

www.elromancia.com

أحوال كل مريض إلى أن وصلنا إلى اسم زاكاري ويست، فقالت: «سيخرج قريباً».

فاتسعت عينا لويزا وسألت: «يخرج؟ ماذا تعنين؟».

ـ سيُنقل إلى لندن ليحصل على عناية خاصة، يبدو أن لدينا شخصاً شهيراً في قسمنا.

واتسعت ابتسامة ماري حين أضافت: «انهالت الاتصالات الهاتفية عليّ طوال اليوم من الصحافة، الكل يسأل عن حاله! أتصدقين أن بعضهم أراد أن يزورنا ليلتقط له صوراً؟ فأجبتهم انه غائب عن الوعي، ولا يبدو جيل الوجه حالياً. لو كان واعياً لما رضي بالتقاط صور له وهو بهذه الحالة. لقد حضر بعضهم شخصياً فاضطررت لاستدعاء جورج من الردهة لكي يخرجهم!».

فقالت لويزا بإلحاح، غير مهتمة بأخبار الصحافة: «ولكن... لماذا سيتركنا؟».

فردت ماري بغيظ مكبوت:

ـ حسناً، يبدو أن وكيله... مدير أعماله، أو مهما كان لقبه... يعتبر هذا المستشفى غير مؤهل لعلاج هذا الرجل الشهير. لذا يريد نقله إلى مستشفى في لندن حيث يكثر اخصائيو الجلد والجراحة التجميلية. أرادوا نقله اليوم، لكن جرّاحنا الدكتور هالوز رفض الأمر بعناد، وأشار إلى أن حالته لا تسمح بذلك. سيقررون غداً متى يمكن نقله، بعد أن ينهي الدكتور هالوز جولته على المرضى.

وتملك الفزع لويزا: «لا يمكنه تحمّل هذه الرحلة! سيتألم كثيراً».

كان قد تلقى العناية اللازمة، ويعطى الأدوية باستمرار، كي يجتاز هذه الأيام القليلة بأقل قدر ممكن من الألم. وقفت لويزا بجانبه تحدّق في الوجه المتجهم المروّع الذي سيظهر به أمام العالم في الأشهر القادمة، حتى

يصبح جاهزاً للجراحة التجميلية. بدا رجلاً جذاباً في الصور المنشورة في الصحف، وما أفظع أن يبدو الآن بهذا الشكل.

لكنه قويّ البنية، وإلا لما نجا من ذلك الحادث ولما بدت عليه أولى علامات الشفاء بمكن للناظر إليه أن يلاحظ بنيته القوية بوركيه النحيفين وساقيه الطويلتين وعضلاته الرياضية ولحسن الحظ، لم تنل النيران من جسمه كله، ولم تصل الحروق البغيضة إلى ساقيه، بل نجتا من النار وحافظتا على لونهما الاسمر.

فتح جفنيه فجأة، فوجدت نفسها تحدق في عينيه. كالفضة المصقولة اللامعة، اتسع بؤبؤهما بسبب الأدوية المهدئة التي تعطى له.

استعادت لويزا حسّها المهني على الفور، فانحنت تبتسم له وتطمئنه:

ـ مرحباً، كيف حالك اليوم؟

لم يحاول زاكاري ويست أن يجيب، تذكرها بشكل مبهم فقطب حاجبيه المحروقين بألم. إنها المرأة البيضاء الشاحبة الباردة التي رآها واقفة قرب سريره من قبل، إلا أنه لم يكن واثقاً متى حصل ذلك.

أصبح الوقت بالنسبة له متاهة راح يبحث فيها عن طريق للخروج. لم يكن يدري منذ متى وهو على هذه الحال، وجل ما يعرفه أن ثوانٍ قصيرة مؤلمة تفصل بين نومه ويقظته. لم يكن يدرك مكانه وما حل به، بل كان الألم يترصد به وينهش جسمه. وفي كل مرة كان يهرب من الوعي ليرتاح لأنه يعاني الأمرّين في اليقظة، وإن كان لا يذكر سبب آلامه. وتذكّر فقط أن حياته توقفت فجأة حين كان يقود سيارته في الطريق، وأصبح منذ تلك اللحظة فريسة للألم.

قالت المرأة: «أنا الأخت جيلبي، وأنا اعتني بك، يا سيد ويست، كيف حالك؟».

كان لها صوت ناعم منخفض، يفترض به أن يخفف عنه، لكنه

www.elromance.com

ازعجه . أتظنه طفلاً؟

إبتلع زاكاري ريقه، ثم شعر بعطش شديد:

ـ أشرب . . . حاول أن يتلفظ بهذه الكلمة من خلال شفتيه الجافتين، ولا بد أنها فهمت مراده، إذ أدخلت بلطف انبوباً رقيقاً بين أسنانه، فأحس بالماء البارد في فمه، وعندما روى ظمأه توقف عن الشرب ثم أغمض عينيه منهكاً.

سألته المرأة بغباء: «هل تشعر بالألم؟».

فتح زاكاري عينيه ونظر إليها بازدراء. «ماذا تعتقد؟».

حملت نظراته هذا السؤال، لكنه عاد وأغمض عينيه، ليستسلم لأحلامه. كانت الفتاة في انتظاره، بشعرها الأسود المتطاير في الهواء، ووجهها الابيض النقي، وابتسامتها التي جعلت دمه يغلي. سبح زاكاري في الجو نحوها باسماً، وقد تسارعت دقات قلبه.

عندما فحصه الجرّاح مرة أخرى، في اليوم التالي، كان زاكاري واعياً للمرة الأولى، وتمكن دايفيد هالوز من التحدث إليه:

ـ يريد السيد «كورتني»، مدير أعمالك، نقلك إلى مستشفى آخر في لندن حيث يتوفر أخصائيون في جراحة الجلد. لكنني لا أستطيع السماح لك بهذه الرحلة الطويلة، بالرغم من تحسنك السريع والمستمر.

حدق زاكاري ويست فيه من دون اهتمام، وقد تراخى جسده:

ـ فهمت.

لم يظهر أي انزعاج لهذا الخبر، فابتسم له دايفيد هالوز بمودة مشجعاً:

ـ سنمنحك العناية اللازمة، يا سيد ويست، وسنحاول تأمين سبل الراحة لك.

قال زاكاري وقد صار صوته أكثر صفاء:

ـ كنت مخدراً بشكل منعني من ملاحظة ذلك.

فضحك دايفيد هالوز:

ـ حسناً، نعم، كان لا بد من ذلك في الأيام الأولى، لمنعك من الحركة، ولمواجهة تأثير الصدمة. ستنقّص حالياً كمية الدواء الذي نعطيك إياه، إذ لا نريدك أن تتعوّد عليه.

وضحك مجدداً، لكن زاكاري لم يفعل. بل قال باكتئاب: «لن يحدث هذا، فأنا أكره أن أفقد وعيي».

ـ حسناً، يسرّني أن أراك على طريق الشفاء. سأمرّ لرؤيتك غداً، قبل موعدي المعتاد بقليل. فغداً يوم السبت، ادع لي أن أمضي عطلة نهاية الأسبوع بشكل هادىء ولو مرة واحدة.

وضحك مجدداً، فبدت في عيني زاكاري الرماديتين ومضة من المرح وهو يقول:

ـ سيكون الامر صعباً عليّ في الوقت الحالي.

جاءت ردة فعل دايفيد قوية بعد سماعه هذه الكلمات، ثم قال بابتسامة عريضة تحمل شيئاً من الدهشة:

ـ نعم، إنك على حق.

إذ لا يمكن لزاكاري ان يبسط يديه المحروقتين للدعاء.

وتحدث دايفيد مع لويزا ذلك المساء، قائلاً لها:

ـ أكن احتراماً كبيراً لذاك الرجل، فهو شجاع وقوي الارادة للغاية. عرفت رجالاً لم تكن حروقهم بالغة وخطيرة كحروقه، ومع ذلك ملؤوا الدنيا ضجيجاً وصراخاً. يظهر مزاحه في مثل هذا الوقت مزاياه الشخصية القوية، لا أظنني سأتحلى بمثل شجاعته لو كنت مكانه.

وسكت برهة ثم تابع مقطباً: «أعلم، في الواقع، أنني لن أكون كذلك! فلو لحقت بي إصابته لملأتني رعباً، وربما هذا هو السبب الكامن

www.romancia.com

وراء تخصصي في جراحة الجلد. أصيب أبي بحروق بالغة في انفجار مواد كيماوية عندما كنت في العاشرة من العمر، ولم أنسَ قط منظره عندما رأيته بعد نحو أسبوع. انتابتني الكوابيس لسنوات، ولطالما حلمت بأنني ملفوف بتلك الضمادات».

حملقت لويزا فيه، وقد أظلمت عيناها في ضوء مكتبها الخافت:

ـ مسكين يا دايفيد، لا بد ان الأمر كان مخيفاً في مثل تلك السن المبكرة.

ضحك وقد احمر وجهه، ثم نهض هازاً كتفيه:

ـ نعم. . . حسناً، يجب أن أرحل، سأذهب إلى بيتي الآن، لقد أرهقني العمل في غرفة العمليات ومن الأفضل أن أنام قليلاً، إلى اللقاء غداً. هل أنت متشوقة لذلك؟

فأشرق وجه لويزا بابتسامة وأجابت:

ـ آه، نعم. لم أرقص منذ زمن طويل. وأنا أعشق الرقص، سأشتري ثوباً جديداً غداً!

ـ لكي تخرجي معي؟ هذا يزيدني غروراً.

ضحك وشع الدفء من ملامحه الجذابة، بالرغم من أمارات التعب والإرهاق البادية على وجهه.

لم تستطع لويزا التفرّغ للتسوّق قبل عصر يوم السبت. وبما أن المتاجر الأنيقة في «وينبري» تقتصر على متجر واحد، لم تحتج لوقت طويل حتى تقرر ما تريده.

اختارت ثوباً رائعاً من الحرير القاتم الزرقة، انسدل على جسمها، ليصل إلى أخمص قدميها، وزيّنته ياقة من «الدانتيل» الناعم. لفتتها تنورته التي تصدر حفيفاً خافتاً كلما تحركت وتعلوها عند الخصر زهرة من قماش وردي اللون. أحبت لويزا طراز هذا الثوب.

قالت لها البائعة:

ـ يشبه هذا الثوب أزياء العصر الفيكتوري، أليس كذلك؟ إن تسريحة شعرك كلاسيكية وتتلاءم معه. كانت النساء يجعدن شعرهن في ذلك العصر، لكنني أظن ان هذه التسريحة تناسب الفتيات الشابات وليس السيدات اللاتي في سنك.

ضحكت لويزا من دون بهجة. لم تبلغ تلك الفتاة العشرين من عمرها لذا وجدت ان لويزا، البالغة من العمر سبع وعشرين سنة، مسنّة. والغريب ان كلماتها جعلت لويزا تشعر وكأنها كبرت فجأة من دون أن تلحظ ذلك. إنما لم تكن مسنّة فعلاً! فلم لا تجعد شعرها؟

عندما عادت إلى بيتها، غسلت شعرها، وأمضت بعض الوقت في تجعيده على الطراز الفيكتوري.

عندما انتهت من ارتداء ملابسها، وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها وتعض على شفتها، بدت مختلفة في هذا الزي الجديد! لقد غيّر، في الواقع، مظهرها كلياً. واحمر وجهها، اذ شعرت أنها سخيفة، وأوشكت ان تعيد تسريح شعرها كما اعتادت أن تفعل، لكن وصول دايفيد منعها من ذلك.

ـ لويزا؟ يا الله، كدت لا أعرفك، شعرك. . .

فتأوهت قائلة: «يبدو غريباً، أليس كذلك؟ لا اعلم لماذا سرّحته بهذا الشكل! ولكن. . .».

ـ لقد أعجبني جداً!.

فنظرت إليه بحيرة، وسألته: «أحقاً؟».

ـ إنه رائع، ويتناسب مع هذا الثوب.

ثم نظر إليها بحرارة وأضاف: «وهذا الثوب مغرٍ للغاية».

ضحكت، واصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل، فابتسم دايفيد وقال لها وهو يضغط على أصابعها: «حمرة الخجل مغرية أيضاً».

فقالت باحتجاج وقد ازداد احمرار وجهها: «لا تسخر مني، يا دايفيد هالوز».

ـ بل أنا أعني ما أقول. عندما تحمرين خجلاً بهذا الشكل، تبدين كاملة الأنوثة. فأحس بأنك تحتاجين إلى من يحميك...

ـ في هذا العصر وهذا العمر؟

ـ آه، أعلم أن هذه أمور رجعية... كفتح الباب للمرأة، والوقوف حين تدخل إلى الغرفة... لا بأس، يبدو هذا مضحكاً في أيامنا، لكنني رجل رجعي الطراز، أحب الفرق بين الرجل والمرأة، ولا أعلم لم عليّ أن أعتذر عن قناعاتي هذه.

ردت عليه باسمة: «ولا أنا».

فقد أدركت من عملها الطويل معه أنه ليس فناناً، وأنه لا يعامل المرأة كدمية... بل هو بعيد عن ذلك كلّ البعد، فهو يعاملها باحترام كبير ومساواة تامة.

بادلها ابتسامتها معلقاً: «هذا ما جذبني إليك أولاً، أنوثتك».

حدقت به مدهوشة، إذ لم يصرّح لها بهذا من قبل. ولطالما تساءلت عن سبب بقائه حتى سن الخامسة والثلاثين من دون زواج، فهو محبوب وذا شعبية بين الممرضات، وقد خرج من قبل مع فتيات أخريات لكن علاقاته فشلت كلها. فهل الساعات الطويلة التي يمضيها في العمل، واهتمامه البالغ به، عائق يقف بينه وبين أي امرأة تربطه بها علاقة؟ لكنه بدا الليلة مختلفاً، ومميزاً في بذلة السهرة السوداء. بدا نحيفاً للغاية، وأسبغ القميص الأبيض وربطة العنق السوداء عليه تألقاً لم يكن جلياً، في الأيام العادية. وسألها بمرح:

ـ هل تتأملين شكلي، يا لويزا؟ أم أنك نفرت مني عندما قلت إنني أحب الفتيات اللواتي يتمتعن بالأنوثة؟

فضحكت وهي تهز رأسها.

شدّ على يدها وجذبها نحوه محنياً رأسه. فرفعت رأسها بحركة غريزية، وشخصت إليه بنظرها. عندها، رن جرس الهاتف فجمدا مكانهما يتبادلان النظرات بغيظ. قال دايفيد:

ـ لا تجيبي.

ـ تعلم أنّ عليّ ذلك، لعله أبي.

لكن الاتصال لم يكن من أبيها، بل من المستشفى، فتنهدت واستدارت آسفة.

وقفت لويزا تنظر إليه، ويدها تعبث بسترتها المخملية. ان كانوا يستدعون دايفيد إلى المستشفى، فلن تستطيع الذهاب إلى الحفلة.

وضع السماعة مكانها ثم استدار نحوها ممتعضاً:

ـ قلت لك ألا تجيبي على الهاتف.

ـ لم أكن أعلم أنك الطبيب المناوب في المستشفى.

ـ لست كذلك، لكن أحد مرضاي ينتظر إجراء عملية له منذ ثلاثة أيام. يظنون أن حالته استقرت الليلة. يطلبون مني أن أمرّ على المستشفى لألقي نظرة على المريض وأوافق على إجراء تلك العملية.

ـ هل أنت من سيجريها.

ـ أظن ذلك.

ـ هل يعني هذا اننا لن نذهب إلى الحفلة؟

ـ بل سنذهب، لكن من الأفضل أن نمرّ بالمستشفى لنرى ذلك المريض ونقرر.

ـ ربما من الأفضل ان تنتظروا حتى الغد، على أيّ حال.

ـ همم... لكنه مريض مراوغ، ولست واثقاً من أنه يحتمل المزيد من الانتظار، لكنني سأرى.

عندما وصلا إلى المستشفى، سألها دايفيد: «هل ستنتظرينني هنا؟».
لكنها هزت رأسها باسمة:
ـ ربما تأخرت دهراً. لا، سأدخل معك وأنتظرك في قسمي، سأحتسي فنجان قهوة مع الأخت «جينكنز».
ـ لتتباهي بثوبك الجديد؟
ـ ولم لا؟
افترقا في المستشفى، فسارت في الممر، وابتسمت ابتسامة عريضة حين تفاجأت احدى المرضات وهي تمرّ بجانبها.
كانت الأخت جنكنز في القسم، تشرف على عمل ممرضة توزع أدوية المساء. توجهت لويزا ناحيتهما، فنظرت الأخت جنكنز حولها، ثم أخذت تحدّق فيها، وقد فغرت فاها:
ـ ألا يمكنك أن تبقي بعيدة عن القسم؟
فضحكت لويزا: «كان على دايفيد أن يرى أحد مرضاه».
علقت الممرضة: «ما أروع هذا الثوب!».
ـ شكراً، هذه المرة الأولى التي أرتديه فيها.
فرددت الممرضة وهي ترفع نظرها إلى تسريحة شعر لويزا: «إنه يناسبك تماماً».
فقالت الأخت جنكنز: «لم أرك تصففين شعرك بهذا الشكل من قبل».
ـ لم يسبق لي أن فعلت، ولا أظنني سأفعل ذلك مجدداً.
فعلقت الممرضة: «آه، ولكنه جميل جداً».
وأومأت الأخت جنكنز برأسها موافقة:
ـ لقد أعجبني أيضاً، فأنت تبدين مختلفة.
شكرتهما لويزا وقد توردت وجهها قليلاً. ثم استدارت لتعود إلى المكتب، وإذ بصوت ضعيف يسمرّها مكانها. نظرت إلى سرير زاكاري

ويست، فرأته يتحرك قليلاً. تقدمت نحوه، وكانت عيناه مفتوحتين:
ـ هل ناديتنا يا سيد ويست؟
راح يحدق فيها بصمت.
ـ ظننت أنني سمعت صوتك تنادي . . .
فأغمض عينيه من دون ان يجيب، ثم تمتم يحدث نفسه: «أصبحت تتراءى لي الآن».
انحنت لتسمع كلماته، فسمعته يتمتم من بين شفتيه المتورمتين:
ـ هذا جنون! سأجن، فليساعدني الله.
فتح عينيه ثانية، واضطرب حين رآها بقربه. فابتسمت له مواسية:
ـ هل انت بحاجة لشيء يا سيد ويست؟
فأجابها بنظرة عنيفة غاضبة وزجر:
ـ ابتعدي عني، بحق الله، لا أستطيع ان أحتمل أكثر . . . ابتعدي!
فوجئت ببردة فعله هذه فأطاعته من دون ان تنبس بكلمة. وسمع حفيف ثوبها وهي تسرع نحو المكتب.
تملكها الرعب حين رأت عينيها تغرورقان بالدمع، وأخذت تتساءل عما يجري لها، وهي تبحث عن منديل لتمسح به دموعها بغضب. لا يستطيع هذا الرجل السيطرة على طباعه السيئة، فهو مريض جداً! وهو ليس أول مريض يهاجمها، فلم البكاء؟
أخذت تحضر القهوة كما طلبت منها الأخت جنكنز لكنها لم تجد فرصة لشربها. فما أن عادت جنكنز إلى المكتب، حتى رن جرس الهاتف، ليصلها صوت دايفيد: «هل أنت جاهزة؟».
ـ نعم، طبعاً كيف حال مريضك؟
ـ ما زال غير جاهز لإجراء العملية. سأراك في السيارة بعد دقيقتين!
وضعت السماعة ثم التفتت إلى زميلتها:

www.elromancia.com

ـ آسفة، يا هيلين، لم يتأخر دايفيد بقدر ما كنت أتوقع، إلى اللقاء فيما بعد.

ـ نعم، أتمنى لك وقتاً ممتعاً، إنما لا تتأخري في العودة!

خرجت لويزا من المكتب، ووقفت لحظة تنظر إلى سرير زاكاري ويست. يبدو أنه عاد إلى النوم. تنهدت، ثم أسرعت نحو دايفيد.

أثار وصولهما معاً إلى حفلة المستشفى التي أقيمت في أفخم فندق في وينبري اهتمام وانتباه الجميع. كانوا يعلمون أنهما يخرجان معاً، ولكن حضورهما معاً إلى مثل هذا الحدث البالغ الأهمية بدا كتأكيد للنوايا. واقترن بذلك اسمها باسمه اجتماعياً، واعترف بهما صديقين تربطهما علاقة غرامية.

قالت لها إحدى صديقاتها أثناء الحفلة: «عندما تختارين وصيفات عرسك، لا تنسيني».

فردت لويزا بنفاد صبر:

ـ مهلاً، يا جين! لم يمض على بدء علاقتنا سوى بضعة أشهر ولا نفكر في الزواج حالياً.

فقالت جين ضاحكة: «ربما يفكر هو في الأمر. فقد لاحظت نظراته إليك».

احمر وجه لويزا مما جعل الفتيات يغرقن في الضحك. لم تكن المرة الأولى التي تستاء فيها من سهولة احمرار وجهها. وقد يرى دايفيد في ذلك دليل أنوثة، لكنها لعنة ودّت لويزا التخلص منها.

أعادها دايفيد إلى المستشفى عند الساعة الواحدة والنصف بعد انتهاء الحفلة، وركن السيارة في ساحة المستشفى ثم سألها: «هل استمتعت بالحفلة؟».

فأومأت وقد تألقت عيناها: «أمضيت وقتاً رائعاً، يا دايفيد، شكراً

لك. ليتني لم أعد إلى العمل!».

بعد أن تناولا عشاءً فاخراً، وضحكا وتسامرا مع الأصدقاء، وبعد أن رقصت مع دايفيد لساعات، لم تعد ترغب بالعودة إلى رتابة العمل. رد دايفيد برقة:

ـ صدقيني، لو لم يكن عليك العودة إلى العمل الليلة، لتعرفنا إلى بعضنا البعض بشكل أفضل...

دفعت تلك الكلمات بالحمرة إلى وجنتها، مما جعله يبتسم: «ما أجملك يا لويزا!».

ومال نحوها يعانقها فأغمضت عينيها، لكنها لسبب ما، لم تتجاوب معه، فابتعد عنها بالرغم من أنها لم تدفعه بعيداً.

رفع رأسه بعد قليل، ونظر إليها بجفاء: «اخترت لحظة غير مناسبة، أليس كذلك؟».

ـ آسفة يا دايفيد، لقد تغير مزاجي وحسب... أظن ان السبب هو عودتي إلى العمل مباشرة.

فابتسم لها مواسياً: «لا بأس، من الأفضل أن تسرعي إلى عملك، تصبحين على خير يا لويزا».

استبدلت لويزا ملابسها بثياب العمل، وسارت إلى سرير زاكاري ويست. كان نائماً، فوقفت تتأمله، متمنية لو تفهم هذا الاحساس الغريب الذي تملكها طوال السهرة ودفعها لرؤيته. كان جسمها مع دايفيد فيما بقي عقلها هنا، مع هذا الرجل الغريب العدائي!

بعد لحظات، تابعت جولتها على بقية المرضى، وعادت إلى المكتب لتكمل عملها. اخذت تنظر بين الفينة والأخرى إلى سرير زاكاري ويست وهي تتنهد وقد تملكها الارتباك لمشاعرها هذه.

بقي زاكاري ويست في قسمها طوال الأسبوع التالي، وأظهر تحسناً

مستمراً، بانتظار ان يوافق دايفيد على نقله إلى المستشفى في لندن. تمنت لويزا لو يوافق، فرحيل زاكاري عن القسم سيشعرها بالإرتياح.

ولكن، هل هذا صحيح؟ أرادته أن يرحل، لكنها كانت تشعر بالاكتئاب كلما اقترب موعد قرار دايفيد، كانت تأتي إلى العمل في المساء لتجد زاكاري ويست في سريره، فتشعر بارتياح يزعجها.

وبعد مرور اثني عشر يوماً على الحادث، دخلت القسم ذات ليلة فوجدت مريضاً جديداً في سرير زاكاري ويست. لقد رحل!

وقفت لويزا تحدق في القسم، وقد غمرها إحساس بالبرودة والفراغ. لكنها ما لبثت أن انتفضت وسارت مبتعدة. أصبح بإمكانها الآن أن تعود إلى حياتها الطبيعية وان تنسى كل ما يتعلق بزاكاري ويست.

***

٣ ـ العناق الأول

مضت أشهر قبل أن تسمع لويزا أخبار زاكاري ويست من جديد. بالرغم من أنه خطر على بالها بين الحين والآخر، وخاصة حين لم تكن تتوقع ذلك. بدا وكأنه يختبيء في عقلها ليفاجئها وهي مشغولة تفكر في أمور أخرى. وفي كل مرة شكّل ذلك صدمة لها، وزاد من اكتئابها.

لو أحبته، لفهمت مشاعرها، ولكنها لا تشعر حتى بالميل نحوه. لم يكن مريضاً سهلاً حسن السلوك وأدركت بغريزتها أنه عديم اللباقة والتهذيب والاكتراث، حتى وإن كان بصحة جيدة. اكتشفت هذا في صورته التي رأتها في الجريدة. لم يكن رجلاً سهل المعشر لتحبه، كما قرأت عنه ورأته في ملامحه في الصورة.

شعرت بضيق بالغ إذ لم تفهم سبب عدم تمكنها من نسيانه.

لم يأت أبوها على ذكره قط، أو على ذكر الحادث، كما لم تُرفع الدعوى إلى المحكمة بعد، فقضايا الحوادث متراكمة في المحاكم. وفضل هاري جيلبي نسيان كل ما يتعلق بالحادث قبل ان يصله تبليغ المحكمة. وقد تفهمت لويزا دوافعه، وحذت حذوه.

كانت تقابل دايفيد كلما أتيحت لها الفرصة، وهي نادرة نظراً لطبيعة عملهما، وقد فهمت السبب الكامن وراء عدم زواج دايفيد حتى اليوم، فهو لا يجد الوقت لذلك! فالعمل يشغل باله، حتى في أوقات فراغه.

www.romancia.com

وحين يعمل، يلفه جوّ من التركيز الفرح يجعله غافلاً عن كل ما يحيط به.

وعلى أيّ حال، لم تكن لويزا تمانع، فعلاقتهما الهادئة المفعمة بالمودة أرضتها. وهي تلائمها بقدر ما تلائم دايفيد، لم تكن تبحث عن علاقة حب عاصفة محمومة بل تنشد الرقة والتعقل اللذين وجدتهما عند دايفيد.

زاد ذلك في استغرابها لعجزها عن نبذ زاكاري ويست من ذهنها، فهو لم يكن ذلك الرجل الهادىء المتعقل الذي تبحث عنه وتفضله.

كان بدائياً، كالريح العاصفة . . . أو كالرعد الذي يلي البرق، إذ لا يمكن التنبؤ به أو ضبطه. ولطالما خشيت لويزا العواصف الرعدية، وكرهت صوت الرياح العاصفة، وكان زاكاري ويست يثير لديها المشاعر نفسها، فيزعجها ويخيفها.

وقبيل عيد الميلاد، اتصل بها أبوها عصر أحد الأيام، بعد خلودها إلى النوم بوقت قصير.

ـ أرجو ألا أكون قد أيقظتك، هل تعملين هذه الليلة؟ أم بإمكاننا تناول العشاء معاً؟ لم أرك منذ وقت طويل وينبغي أن نتحدث عن العيد، يا لويزا، ما هي مشاريعك؟

ـ سأعمل يوم العيد، لكنني سأحصل على يومي إجازة فيما بعد.

لم تثر الموضوع مع أبيها إذ اشتبهت في أن نويل لا تريدها أن تمضي إجازة العيد معهما كما لم تشأ أن تحرج والدها. قال ببطء:

ـ حسناً، متى يمكننا أن نجتمع كي نتباحث في الموضوع؟

ـ الليلة، فأنا لا أعمل.

ـ ما رأيك بتناول العشاء في مطعم «شيريتري»؟.

ـ اتفقنا.

كان المطعم من أحدث المطاعم في وينبري، وقد ارتادته من قبل مع دايفيد فأعجبها طعامه.

أضافت: «لا يبعد المطعم عن بيتي سوى دقائق. ويمكنني أن أقصده سيراً على الأقدام».

ـ حسناً، لن يكون هناك سوانا.

عنت كلماته أن نويل لن ترافقه ولم يدهش ذلك لويزا، فقد كانت تعلم أن زوجة أبيها تتجنبها قدر الإمكان، وشعرت بالارتياح إذ أدركت أنها لن ترى نظرات نويل العدائية، فسألته بلهجة طبيعية: «متى نلتقي، يا أبي؟».

ـ في السابعة والنصف.

ـ هذا عظيم، سأكون هناك.

لبست ثوباً من الصوف الأزرق، طويل الكمين، تزيّنه ياقة رياضية عالية، وينسكب على جسدها مبرزاً رشاقتها.

كان في انتظارها، رجل نحيف في مثل طولها، رياضي الجسم لحرصه على مزاولة الرياضة يومياً، لكنها لاحظت فجأة ان الشيب راح يدب إلى صدغيه.

ارتدى ملابس عصرية تتماشى والموضة الشبابية، وللوهلة الاولى يعتبره المرء شاباً. لكن إن أمعن النظر في ملامحه لرأى تحت تلك الملابس الأنيقة العصرية جسم رجل في الخمسين من عمره.

خفق قلبها حزناً، لم عليه أن يجهد نفسه ليبقى شاباً؟ إنه أبوها وهي تحبه للغاية ويؤلمها أن تراه يخوض معركة خاسرة بمثل هذه الضراوة. لم يكن الأمر يتعلق بملابسه وحسب، إنما برغبته الملحة في عدم إظهار سنه الحقيقي.

طبع قبلة على خدها وقال:

ـ تبدين جميلة جداً، يا عزيزتي.

ـ شكراً، وأنت تبدو بألف خير يا أبي.

www.elromancia.com

ولم يكن هذا صحيحاً. فقد ترك القلق والإرهاق على وجهه آثار عميقة، كما أظهر ذلك الحادث سنه الحقيقي.

ـ شكراً يا لويزا!

هل هو عادة، بمثل هذا التوتر، أم أن شيئاً آخر قد حدث؟ أحضر النادل قائمة الطعام فأخذا يقرأانها، وبعد أن طلبا ما يريدان، قال الأب:

ـ لويزا، ما جعلني أتحدث معك عن... العيد... حسناً، الأمر هو...

واحمر وجهه ولم يستطع رفع نظره نحوها، وتصلب جسمها حين أدركت ما يريد قوله. فخرجت الكلمات من فمها بألم وأسى: «ألا تريدني نويل أن أمضي العيد معكما؟».

ـ ليس الأمر بهذا الشكل، يا حبيبتي!

فضحكت: «آه، فلنكن صادقين، يا أبي، إن نويل تتمنى لو أتوارى من الوجود، وربما هذا ما عليّ فعله، فقد تصبح حياتك أسهل».

ـ بل سيجعلني هذا تعساً، ما الذي تقولينه، يا لويزا؟.

فوضعت يدها فوق يده:

ـ آسفة يا أبي، إنسى ما قلته ولا تقلق من أجلي. فعليّ أن أعمل، على أي حال. أنت تعرف كيف يكون الحال في الأعياد... إذ يزداد العمل.

ما فائدة تصعيب الأمور عليه؟ لقد وقع في حب فتاة تصغره سناً وتزوجها، وعليه أن يتحمل النتائج. كانت نويل صارمة عديمة الشفقة رفضت ان تشاركه حبه لابنته التي قد تذكره بزوجته الأولى المتوفاة. ارادت أن تخرج لويزا من حياتهما، وسعت لتنال مبتغاها ولم يستطع أبوها الوقوف في وجهها، بسبب رقته المفرطة. أراد أن يعيش حياة راضية سعيدة من دون مشاحنات وشجارات، فما إن تبدأ نويل شجاراً حتى يدعها تفوز.

واستمرت الدوامة فكلما أذعن لها، كلما تمادت هي في قسوتها. تفهمت لويزا شعوره، فهذه طبيعته التي عرفت نويل كيف تستغلها.

تنهد قائلاً: «لطالما أمضينا أعياداً رائعة معاً».

فردت بحسرة: «نعم، أليس كذلك؟».

جلس الاثنان صامتين لفترة وجيزة، قال هاري جيلبي بعدها:

ـ الحقيقة أن... أن نويل تريد تمضية العيد خارج البلاد، في سويسرا، فقد سمعت من بعض أصدقائها عن فندق رائع، سيقصدونه هم أيضاً، ويمكننا هناك أن نمضي العيد ونمارس رياضة التزلج إذا ما تساقط الثلج.

فردت لويزا، بصدق:

ـ ما أروع ذلك!

لقد امضت مع أبيها إجازات رائعة في سويسرا أو في النمسا. وكانت تعشق المناظر الطبيعية الرائعة ورياضة التزلج.

ـ نعم لولا أنني... أتمنى أن تكوني معنا... ولكن...

ـ في فرصة أخرى، يا أبي.

واقترب النادل منهما باسماً: «المائدة جاهزة، يا سيدي».

أثناء توجههما إلى المائدة، غيرت لويزا الموضوع، وأخذت تتحدث عن مريضة جديدة في قسمها وهي سيدة عجوز مستبدة حوّلت حياتهم في القسم الى جحيم. لقد قالت للممرضة «أنيتا كارتر»: «أموري الشخصية لا تعنيك، يا فتاة، وأنا لن أجيب على أسئلتك المتطفلة هذه».

ردت عليها أنيتا: «حسناً، لن نجري لك العملية إلا بعد أن تجيبي على أسئلتي». فكاد يغمى على السيدة «أيوت».

ضحك السيد جيلبي، ورقّت ملامحه: «هل عمليتها خطرة؟».

ـ أبداً انها عملية بسيطة، وستشفى بسرعة، فهي عجوز قوية البنية، ودايفيد جراح لامع.

www.elromancia.com

ألقى أبوها عليها نظرة سريعة متفحصة: «هل العلاقة بينكما جادة، يا حبيبتي؟ أنت ودايفيد؟!».

علت الحمرة وجهها.. فضحك أبوها وأضاف: «هل هذا يعني نعم أم لا؟».

- إنني مولعة به، لكننا لم نتحدث عن الزواج... إذا كان هذا ما تعنيه... ليس بعد.

- من منكما المتردد؟

طرح عليها هذا السؤال وهو ينظر إليها محاولاً إيجاد الرد في ملامحها. كان واثقاً من أن لويزا مغرمة، إذ لاحظ تغيّراً فيها لكنه لم يستطع اكتشاف ماهية هذا التغير. لقد أمست زرقة عينيها اكثر عمقاً، واحاطت بفمها خطوط لا تخلو من الكآبة.

تملك هاري جيلبي شعور بالعداء نحو دايفيد هالوز، وفكّر في أنه سيقتله إذا ما تسبب لابنته بالشقاء لكن لويزا ضحكت بشيء من السخرية:

- نحن مشغولان جداً، ولا نفكر في الموضوع. فمهنتنا تهمنا أكثر من أي شيء آخر حالياً. ربما سنفكر فيه يوماً ما، إنما ليس الآن.

- أعرف مدى اهتمامك بمهنتك، ولكن يمكنك الاستمرار في العمل والزواج في الوقت نفسه، ألا تريدين أولاداً؟ فأنت تحبين الأطفال، وأقسم أنك تريدين ذلك.

فقالت وقد عاد ذلك الخط الكئيب يرتسم حول فمها:

- هذا صحيح... ولكن... حسناً، لا أدري.. لا يبدو أن الزواج والإنجاب من الاولويات الآن، إذا فهمت ما أعني...

- لعل دايفيد ليس الرجل المناسب لك. عندما ستقعين في غرام الرجل المناسب، ستشعرين برغبة عارمة في الزواج وفي إنشاء أسرة بأسرع ما يمكنك.

- آه، يا أبي، هذا تفكير رجعي! إن النساء يعملن الآن، ويمكنهن رعاية أنفسهن، ولم يعدن بحاجة إلى رجل يهتم بأمورهن.

- لكنهن يحتجن إلى الحب.

ثم تنهد، وتجهم وجهه، وأدركت لويزا وهي تنظر إليه بعطف أنه يفكر في نويل. جاء النادل يزيل الأطباق الفارغة، فسألها والدها: «والآن، ماذا تريدين للعيد، يا لويزا؟».

شعرت بالارتياح لسؤاله، وافترضت أنهما من الآن فصاعداً يمكنهما أن يستمتعا بوقتهما وأن ينسيا مشاكلهما. لكن أثناء مغادرتهما المطعم، قال لها أبوها فجأة:

- بالمناسبة، لقد تلقيت بلاغاً من المحكمة بشأن القضية.

استدارت تواجهه وقد شحب وجهها في ضوء مصباح الشارع: «متى؟».

- في أواخر كانون الثاني.

- لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً!

- إنها حماقة، أليس كذلك؟

- لم يدعون الناس ينتظرون كل هذا الوقت، فيما الخوف من الآتي ينغص عليهم حياتهم؟

- نعم، لقد وقع الحادث في الربيع الماضي.

فنظرت إليه بقلق: «ما رأي محاميك في الأمر؟ ماذا سيحصل؟».

- قد أخسر رخصة السوق نهائياً أو لسنتين أو ثلاث، وقد أدفع غرامة ضخمة. فهو يقول إن التكهن صعب، والقرار يعود للمحكمة.

سكت ونظر في ساعته، ثم أضاف: «سأسير معك إلى شقتك ثم أطلب سيارة أجرة إذا لم يكن لديك مانع».

- بالطبع لا.

www.elromancia.com

وأخذا يسيران جنباً إلى جنب، ثم سألته فجأة:

ـ هل تطلب دائماً سيارة أجرة لتنقلاتك؟

ـ نعم. لم أقد السيارة منذ الحادث، ولا أعتقد أنني سأقودها من جديد. إن ضميري يؤنبني على إصابة ذلك الرجل الخطيرة. . . لقد دمرت حياته.

ـ ما أدراك، يا أبي! لعله خضع لعملية تجميل، وهو الآن على طريق الشفاء. إن حروقه أقل سوءاً من حروق أخرى سبق لي أن رأيتها. إن نسبتها عشرون في المئة فقط. . .

ـ ألا يكفيه هذا؟

ـ ولكنك لم تتعمد إصابته، إنه حادث.

لكنه لم يكن يصغي إليها وقد بدا الشجن في عينيه:

ـ كما أتلفت كل تلك اللوحات. إنه فنان شهير، وكانت تلك أفضل أعماله الأخيرة. لقد عمل عليها سنوات طويلة. . . وإذا بها تتبخر كلها فجأة! لا بد أنه يكرهني كرهاً شديداً.

ـ أنا واثقة من أنه لا يكرهك. وأنه يدرك أن ما جرى مجرد حادث! كفاك تعذيباً لنفسك!

ـ أنت لا تفهمين، لا تعلمين. . . يا لويزا. عليّ أن أخبرك بشيء. . . علي أن أخبر شخصاً ما. . . فأنا لا أجرؤ على إخبار نويل، لأنها ستجن. إنني أرتجف كلما فكرت في ردة فعلها عندما تعلم، وستعلم عند عرض القضية في المحكمة.

بدا عليه التوتر الشديد، فتأبطت لويزا ذراعه تطمئنه حتى وصلا إلى شقتها:

ـ أنا واثقة من أن الأمور ليست سيئة إلى هذا الحد. على أي حال، ادخل لنحتسي فنجاناً من القهوة، وسنتحدث في الأمر.

أومأ برأسه موافقاً، ولاحظت أن هذا جل ما يحتاجه. . . إنه بحاجة لشخص يثق به ويتفهمه. تبعها إلى شقتها حيث شغلت جهاز التدفئة، لتضفي على الغرفة جواً مريحاً. ثم دخلت المطبخ لتحضر القهوة، فيما راح أبوها يجول بنظره في أرجاء الغرفة.

عادت بالقهوة ووضعتها على طاولة صغيرة وسط الغرفة.

ـ إجلس يا أبي، واشرب قهوتك.

أطاعها على الفور وجلس كصبي صغير، محيطاً فنجانه بكفيه وكأنه يشعر ببرد شديد.

قالت باسمة: «والآن، أخبرني ما المشكلة».

ـ لقد نسيت أن أجدد بوليصة التأمين.

ـ ماذا؟

ـ انتهى تاريخ بوليصة التأمين. أردت إرسال شيك لتجديدها، لكنني كنت أنسى دوماً.

ـ آه، يا إلهي.

شحب وجه لويزا، وارتعدت فرائصها وقد أدركت معنى كلماته والنتائج المترتبة عليها. سمعت أبوها يقول: «وإذا رأت المحكمة أني مسؤول عن الحادث، سأضطر إلى دفع المبلغ كله بنفسي».

حملقت فيه من دون أن تنبس بكلمة، بينما أكمل عابساً:

ـ سيقاضيني زاكاري ويست ليجعلني أدفع كل قرش أملكه، يا لويزا!

فشهقت برعب: «أوّاه، يا أبي».

ـ وإذا علمت نويل بذلك ستتركني.

ـ هذا مستحيل.

هتفت محتجة رغم أنها تعلم أنه قد يكون على صواب. فهي تعرف أن

نويل تزوجته من أجل أمواله ، فإن فقدها تركته .

وسألته مقطبة الجبين : «لكن يفترض أن تمنحك المحكمة وقتاً طويلاً لتتمكن من الدفع . لن يرغموك على الدفع فوراً» .

ـ ربما ، لكن . . لقد سبق ورهنت بيتي ، إذ احتجت للمال كي أنفق على شهر العسل . . . أرادت نويل أن تقوم برحلة حول العالم . كانت رحلة رائعة لكنها كلفت الكثير . ثم أرادت سيارة خاصة بها ، وهذا منطقي ، أليس كذلك؟

نظرت إليه ساخرة من دون أن تنطق بكلمة واحدة ، وتلاقت نظراتهما ، فاحمر وجهه :

ـ حسناً ، إنها حساسة لأنها كانت سكرتيرتي ، فأرادت أن تجعل الناس ينسون هذه الحقيقة . لذا اشترت ملابس جديدة ، واضطرت لتغيير تلك السيارة القديمة التي كانت تقودها .

راحت لويزا تفكر في تلك الثياب الفاخرة التي ارتدتها نويل منذ زواجهما . كانت تجد لذة في إنفاق الأموال انتقاماً من حياة الفقر التي عاشتها في الماضي . ولو كان أبوها فاحش الثراء لسرّه أن يمنح زوجته الجديدة كل ما تشتهيه . ولكن ليس من الصواب أن يستدين المال لكي تنفقه نويل بإسراف! أتراها تعرف هذا؟

وتابع أبوها قائلاً :

ـ كما أنني أنفقت المال على الشركة . فقد بنينا ملحقاً للمصنع عندما عقدنا تلك الاتفاقية مع الشركة الإسبانية . . . كان علينا ذلك ، يا لويزا! كانت نويل على صواب ، حين قالت لي (إما أن نتوسع وإما أن تصاب بالركود) . وهكذا رهنت المصنع لكي أسدد تلك النفقات كلها .

ـ وكم استدنت؟

سكت وهو يبتلع ريقه ، ثم اندفع قائلاً : «ربع مليون» .

ـ أبي!

ـ أعرف . تصرفت بحماقة .

ـ كلا يا أبي ، كنت قد وقعت في شباك الحب ، ونويل رائعة الجمال .

فنظر إليها نظرة رضا :

ـ نعم ، إنها كذلك . كما أنها ذكية . لديها أفكار لامعة بنّاءة في العمل . . . قالت إننا نتجه نحو الهاوية ، وعلينا أن نغامر وإلا فقدنا كل شيء . وأظنها كانت على حق . . . لأني لم أعر العمل اهتماماً منذ وفاة أمك . كان المصنع في حالة يرثى لها ، كما لم نواكب تطورات العصر . ومنذ استلمت نويل الشركة ، تغير الوضع .

ـ ولكن إذا كان عليك أن تدفع لزاكاري ويست تعويضاً ضخماً فستثقل الديون كاهلك لسنوات عدة!

ـ بصراحة ، لن أستطيع الدفع ، بوجود رهنين . . . إذ لا يمكنني استردادهما معاً . وفي سني هذا ، لن أحصل إلا على قرض قصير الأمد ، لمدة عشر سنوات ، وبفائدة عالية .

اضطربت وهي تفكر بالفائدة المترتبة على مبلغ كهذا : «ما قيمة المبلغ المتبقي من الدين؟» .

ـ لا زلنا في أول الطريق . وإن كان عليّ دفع مبلغ ضخم لزاكاري ويست ، فسأخسر البيت . . . وربما أعمالي . هذا وقف على قرار المحكمة وتقديرها للضرر الناتج عن الحادث ، والمدة التي ستمنحني إياها لدفع المبلغ المطلوب .

حدقت لويزا فيه ، والخوف بادٍ على ملامحها :

ـ هل الأمر بهذا السوء؟ ولكن . . شركتنا عريقة . . . لا بد أن المصرف سيمنحك قرضاً كافياً لترتيب أمورك!

ـ هذا مستحيل ، بعد رهنين . آه ، لولا هذا الحادث ، لسددت قيمة

الرهنين من أرباح الشركة . . . كنا قد وسّعنا أعمالنا . . . ووجهت نويل الشركة نحو مجالات جديدة جعلت الأرباح تتزايد .

ثم ألقى على لويزا نظرة متضرعة وأضاف :

ـ كانت على حق ، كما ترين! كنا بحاجة إلى حظ أفضل . لكن الحادث دمر كل ما بنيناه .

عندما رحل ، جلست لويزا واجمة تحدق في الفراغ ، وتسترجع الحديث الذي دار بينهما . لقد سبب ذلك الحادث دماراً يتعذر إصلاحه ، والذنب ذنبها هي .

يأبى أبوها أن تعتبر الذنب ذنبها ، لكنها تعلم أنها الحقيقة . لو لم تتصرف كطفلة مدللة! لو تستطيع أن تعوّض عما تسبّبت به! ولكنها تفتقر إلى المال باستثناء مبلغ صغير وفرته من أجل إجازتها في السنة القادمة ، مبلغ لن يغير الوضع .

ولم يكن زاكاري ويست كريماً ، أو متسامحاً . وارتجفت حين تذكرت عينيه العدائيتين ، ووجهه الذي شاهدته في تلك الصحيفة . إنه رجل صعب المراس ، لكن إذا ما أدرك مدى الدمار الذي سيلحقه بحياة أبيها ، هل سيقدّم بعض التنازلات؟

لجأت إلى فراشها وقد تملكتها الكآبة . لكنها غطّت في نوم عميق . وفي اليوم التالي ، استفاقت باكراً وتناولت فطورها ، ثم أخذت دليل الهاتف وبحثت عن رقم زاكاري ويست .

يمكنها ، أولاً ، أن تتأكد من أن هناك زاكاري ويست واحد فقط! وجدت عنوانه : (كوخ الكابتن ، طريق تيرتون . تيرتون) . كانت تعرف القرية . . . فهي لا تبعد سوى نصف ساعة عن المدينة . لكنها رفعت سماعة الهاتف وطلبت رقم زاكاري من دون أن تمعن التفكير في الأمر .

استمر الرنين . . وأوشكت لويزا أن تضع السماعة عندما سمعت

صوت شخص ما يرد عليها بخشونة : «نعم؟» .

فخفق قلبها . إنه هو . لقد عرفت هذا الصوت العدائي .

أقفلت لويزا السماعة من دون أن تجيب ، بعد أن تأكدت من أنه في الكوخ .

ارتدت سترة صوفية حمراء فوق كنزة بيضاء وبنطلون أسود . وخرجت إلى سيارتها الصغيرة التي اشترتها ذاك الصيف بدلاً من قضائها الإجازة خارج البلاد .

بعد وقت قصير ، خلّفت المدينة وراءها وسلكت طريقاً ضيقاً يحاذي البحر ، وتمتدّ على الجهة الأخرى منه حقول لفها الضباب .

عبرت قرية «تيرتون» الهادئة في مثل هذا الوقت من العام ، والتي يرتادها السياح في الصيف . ووجدت كوخ زاكاري ويست بقرميده الأحمر ، على بعد ميل تقريباً . كان الكوخ منفرداً ، تفصله عن الطريق حديقة مسيّجة . ويقع على قمة تعلو خليج تتكسر عليه الأمواج . وعندما توقفت لويزا أمام البوابة تخيّلت الرياح الهوجاء التي تضربه في الليالي العاصفة . ما من منازل أخرى في الجوار ، إنما حقول خضراء شاسعة ، ترعى في بعض منها الأغنام . ولا يمكن للمرء أن يتصور مكاناً أكثر عزلة . قد يراه معظم الناس موحشاً ، لكنه يتماشى مع ما تتذكره من شخصية زاكاري ويست .

عندما غادرت لويزا سيارتها ، زعقت غربان كانت جاثمة فوق شجرة ، وطارت مرفرفة بأجنحتها وكأنها مناديل سوداء ممزقة . . . وكأن في طيرانها نوع من الإنذار ، إذ سمعت وقع خطوات على الممر القديم المبلّط وبرز زاكاري ويست محدقاً نحو البوابة .

كانت لويزا قد فتحتها لتوّها ، فجمدت في مكانها تنظر إليه . وبادرها بصوت خشن ، والعبوس يعلو وجهه : «من أنت وماذا تريدين؟» .

كانت الريح قد شعثت شعره الأسود الذي بدا خشناً وطويلاً فأضفى عليه طابعاً متوحشاً. ولاحظت أنه خضع لعمليات تجميل، لكن بعض آثار الحادث لا زال بادياً على وجهه. فقد تحوّل لون الجروح إلى الزرقة وأحاط بياض ممتقع بالبقع المشوّهة. يبدو أن عمليات تجميلية أخرى ستجرى له، إذ تعلم أن الجرّاح الجيد لا يكثر من العمليات بل يمنح الجسم بعض الوقت ليصبح قادراً على مواجهة عملية أخرى.

لاحظت لويزا حالته بعين الممرضة، فقد اعتادت رؤية مثل هذه الوجوه. لكنها كانت تعلم أن الشخص الذي لم يعتد رؤية هذه المناظر سترعبه.

ربما ظن زاكاري ويست أن سكوتها يعكس الرعب الذي تملكها من منظره. رمقها بنظرة كالذئب الكاسر، وقال: «آه، ابتعدي من هنا!».

واستدار مبتعداً عنها فتذكرت تلك الليلة التي زارته فيها في المستشفى وهي ترتدي ثوب السهرة.

تلك الليلة، ولسبب مجهول، تصاعدت الدموع إلى عينيها حين طردها. أما اليوم، فجاءت ردة فعلها غريزية، إنما مختلفة. كان يعرف مظهره، ولهذا كره أن يراه الناس بهذا الشكل! أحست بألمه وكأنه ألمها هي، وتملكها العطف نحوه. فقالت بهدوء:

ـ ألا تتذكرني، يا سيد ويست؟

استدار نحوها وأخذ يحدّق فيها: «وهل يفترض بي ذلك؟».

كان السؤال مهيناً وكذلك الطريقة التي تأملها بها، لكنها لم تغضب أو يحمر وجهها. واكتفت بالتحديق فيه بلطف وقد بانت الرصانة في عينيها الزرقاوين.

ـ أنا الممرضة جيلبي من «مستشفى وينبري». كنت ممرضتك لمدة أسبوع بعد الحادث.

ارتسمت القساوة على ملامحه، ثم هز كتفيه. وقال بصوت حازم:

ـ حقاً؟ لا أتذكر الكثير عن تلك الفترة.

ـ كنت مريضاً جداً.

ـ نعم، أتذكر ذلك.

كان صوته ساخراً، متهكماً، فتنهدت. لن يكون الحديث مع هذا الرجل سهلاً. ما الذي جعلها تظن ذلك؟ ما الذي أقنعها بأنه سيكون متسامحاً، وسيتفهم وضع أبيها؟

عندئذ نظرت إلى عينيه، فرأت كبرياءً غاضبة ترتسم فيهما، مما جعلها تنسى قلقها للحظة. فقالت برقة: «لقد تحسنت كثيراً».

ضحك وقد مال لون عينيه الرماديتين إلى سواد، وردّ بغضب ومرارة: «حقاً؟».

خطى نحوها خطوتين واسعتين، ووقف أمامها، فتنبهت لطوله الفارع وبنيته القوية. ولفت نظرها الكتفين العريضتين والعضلات القوية والساقين الطويلتين.

لم تكن لويزا طويلة القامة فوصل رأسها إلى مستوى كتفه. شعرت أنها ترتجف أمام قوته المتوعدة. رفعت بصرها إليه وتراجعت خطوة إلى الوراء، ثم قالت متلعثمة:

ـ . . . نعم . . . لقد تحسنت . . .

فكشر عن أسنانه البيضاء بما يشبه الابتسامة:

ـ تجدينني وسيماً، ألست كذلك؟ لكن عندما رأيتني للمرة الأولى جحظت عيناك. وكنت تلهثين من الإثارة، فلم تستطيعي التلفظ بكلمة واحدة. لقد صعقك جمالي.

أمسك بذراعيها، وأصابعه تشدان على لحمها، فأنّت لويزا من الألم.

ـ سيد ويست. . أرجوك . . .

www.elromancia.com

لكنه لم يتراجع، بل أمسك بها بقسوة:

ـ لا حاجة بك للتوسل . . . فسأعطيك ما تريدين!

رفعت بصرها إلى أعلى وقد اتسعت عيناها ذهولاً وترقباً، فضحك بسخرية غاضبة:

ـ يبدو أن صبرك قد نفد.

عمّا يتحدث؟ وحاولت لويزا التملص منه فاشتدت قبضته حول ذراعيها، ثم جذبها نحوه بعنف فتلامس جسداهما. صدرت عنها شهقة خائفة وأخذت ترتجف حين عانقها بقوة وأحست أن العالم قد غاب من حولها في لحظة امتدت إلى ما لا نهاية.

لم تغمض عينيها . . . بل أبقتهما مفتوحتين، وأحست بانفعال غريب لقربه منها. ويا له من شعور لم تختبره من قبل!

أخذ قلبها يخفق بقوة بين ضلوعها. وتصبب العرق من جسدها، وراحت تتنفس وكأن الهواء انقطع عنها فجأة.

لم تختبر هذا الشعور من قبل، ولم تصدق ما يحدث. عناق واحد وإذا بقلبها يصبو إليه شوق غريب عجيب.

* * *

٤ ـ النظرات لا تقتل . .

كان يوم زاكاري ويست سيئاً، فقد جافاه النوم معظم الليل. لكنه اعتاد ذلك. فهو غالباً ما يتجنب النوم مخافة أن تراوده الأحلام المزعجة مجدداً. إذ ما انفك يسترجع حادثة الاصطدام مراراً وتكراراً منذ حصولها.

ويتذكر صدمته حين رأى السيارة الأخرى تنقض عليه، لتصطدم بسيارته وتندلع النيران من حوله.

وتعمّد استعادة ذكريات أخرى، كي يحوّل ذهنه. فاستلقى في سريره يفكر في الفتاة التي رآها قبل الحادث، تلك الفتاة ذات الثوب الأبيض، في الحديقة عند الغروب. لم ينسها قط. وفي تلك الشهور الصعبة التي أمضاها طريح الفراش، كانت ذكراها تروّح عنه في أحلك الساعات. تمنى لو يعثر عليها، ولكن، منذ الحادثة، أصبحت فكرة قيادة السيارة تملؤه رعباً. فإذا أراد الخروج طلب سيارة أجرة.

عندما يتغلب على مخاوفه، سيخرج للبحث عنها. كان يعلم أنه سيجدها يوماً ما، كما كان يؤمن أنها في انتظاره في مكان ما.

نهض باكراً في ذلك الصباح، وحضّر قهوته. شربها وهو يقف عند النافذة يتأمل شروق الشمس، ويصغي إلى صوت طيور النورس الحزين.

ثم قصد محترفه حيث كان البرد قارساً، إذ نسي تشغيل جهاز التدفئة المركزية. وراح ينظر إلى القماشة التي ثبتها على المسند يوم عاد من

المستشفى.

لم يكن عليها خط واحد، لأنه لم يرسم منذ حصول الحادث. لكنه تظاهر بأنه استعاد قدرته على الرسم، وأن الأمور عادت إلى نصابها، وأن حياته عادت إلى سابق عهدها.

أشاح بوجهه عن القماش العاري، ثم أخذ يمزج ألوانه بحركات بطيئة مدروسة.

التقط دفتر رسومه وأخذ يتصفحه، وكأنه يبحث عن منظر طبيعي ينقله إلى القماش. كان بعض الرسوم قديماً، وبعضها متنه، مليء بالتفاصيل، كرسمة عاصفة فوق البحر، وطيور النورس فوق حقل محروث، والأشجار الجرداء والشمس تشرق من خلفها.

فيما كان البعض الآخر مجرد خطوط رسمت بسرعة ومن ثم تُركت. ولم ير ما يثير رغبته في الرسم.

التقط الفرشاة بغضب وقنوط، وانكب على القماش ثائراً يغمسه باللون الأحمر حتى لم يعد يرى فيه بياضاً.

ألقى بفرشاته لاهثاً، وسار إلى النافذة بخطوات غير ثابتة، ثم فتحها ليتنشق هواء شهر كانون الأول البارد، متأملاً أنفاسه التي استحالت أمامه ضباباً.

رأى عصفوراً جاثماً على غصن يراقبه، فأخذ زاكاري يراقبه أيضاً.

اعتاد في ما مضى أن يأخذ دفتره ليرسم هذا المشهد، أما اليوم فاكتفى بالتحديق فيه، ثم أشاح بنظره عنه. توجه إلى المطبخ حيث حضّر كوباً آخر من القهوة. فيما كان يرتشفه، رنّ جرس الهاتف. فأجاب مكرهاً، بعد أن ساورته رغبة في تجاهله.

ـ نعم؟

ـ هل ستحضر في الأسبوع القادم أم لا، يا زاكاري؟

عرف هذا الصوت المتعجرف، صوت أخته فلورا. تعيش أخته الكبرى في «فرنسا» مع زوجها «إيفز»، وهو رجل صبور للغاية، حلو الحديث بحسب رأي زاكاري، وإلا لما احتمل الحياة مع فلورا المتسلطة منذ عشر سنوات.

وأسرع زاكاري يقول: «قلت لك...».

لكن فلورا لم تدعه ينهي حديثه، كالعادة. إذ اعتبرت أن فرق السن بينهما، يسمح لها بمقاطعته، وإعطائه النصائح، والتدخل في حياته متى شاءت.

ـ لا يمكنك البقاء وحيداً أيام العيد! فالبرد قارس في الكوخ. ولا أظنك تملك ما يكفي من الطعام في ذلك المكان، فالمتاجر تقفل أيام العطلات. ويفترض أن تمضي العيد مع أسرتك. فما معنى العيد من دون الأولاد؟

فأجاب بكسل: «هادىء مسالم».

ـ سأقطع لك تذكرة سفر إلى مارسيليا. يمكنك أن تأخذها من مطار «هيثرو» في لندن. يُفضل أن تأتي في الثالث والعشرين، إذا كنت ترغب في قضاء ليلة عيد الميلاد معنا.

ـ لكنني لا أرغب في ذلك. لن أسافر يا فلورا، فلا تضيعي نقودك على تذكرة سفر لن أستعملها.

ـ والآن، إصغ إليّ، يا زاكا...

ـ لا يا فلورا، لن أسافر.

أسكتها صوته الغاضب للحظة. فأكمل بصوت ألطف: «اسمعي، أشكرك على دعوتك هذه، لكن مزاجي لا يسمح لي بأن ألعب دور الخال اللطيف أمام سام وكلود... سأفسد عليكم عيدكم وهذا ما لا أريده. عيداً سعيداً إذن، وبلغي تمنياتي الطيبة لزوجك وأسرته وللطفلين

وسأراكم . . . » .

قاطعته بسرعة قبل أن يقفل السماعة : «ستمكث دانا مع أبويها . أخبرتها بأنك ستحضر . إنها تحترق شوقاً لرؤيتك من جديد ، رغم قسوتك عندما حاولت أن تراك في المستشفى . إنها فتاة طيبة . قالت إنها تفهم السبب الذي جعلك لا تحتمل أن تراك حينذاك ، وهي مستعدة لمنحك فرصة أخرى . لذا سأبدو غبية إذا لم تحضر» .

ـ فلورا ، كفّي عن التدخل في حياتي . هل لك أن تدعيني وشأني؟

وأقفل السماعة بعنف ، ثم حمل فنجانه وسار إلى محترفه ليطيل النظر مقطباً إلى الصباغ الأحمر الذي لطخ به القماش . لقد عبّر هذا اللون عن مزاجه أحسن تعبير .

ها هي فلورا تحاول الجمع بينه وبين دانا مجدداً . وتمنى لو تتوقف أخته عن التدخل في حياته . لكنها دأبت على هذا منذ مدة طويلة حتى إنها لم تفكر يوماً في ما يريده هو . فهي تظن إنها تعرف مصلحته ، ولم تفهم بعد سبب قطع علاقته بدانا .

كانت دانا شقراء خلابة ، مغنية ناجحة ، تكسب الكثير من المال . فأعجب الأمر فلورا ، صاحبة التفكير العملي ، والتي ما فتئت تسأله : «لما قطعت علاقتك بها؟» .

لكن زاكاري لم يجب قط . فهو لا يطلع أخته على أموره .

أما الحقيقة فهي أن شجاراً عنيفاً نشب بينه وبين دانا حين علم بعلاقتها مع رجل آخر . فقطع علاقته بها نهائياً ، ورفض رؤيتها مجدداً .

لكن فلورا صممت على التدخل . وبعد أن أجريت له أولى عملياته التجميلية ، اتصلت بدانا ، فزارته هذه الأخيرة في المستشفى .

حاولت أن تحافظ على رباطة جأشها عندما رأته للمرة الأولى ، لكن زاكاري لاحظ الصدمة والرعب في عينيها حتى وهي تحاول الابتسام .

قالت له بصوت شجي : «كيف حالك ، يا عزيزي المسكين . لقد جئت من قبل لكن فلورا قالت إنك لا تستطيع رؤية أحد بعد . وحالما اتصلت بي لتقول إن بإمكاني الحضور ، أسرعت لرؤيتك» .

كان يحدق فيها وهي تثرثر لتخفي رعبها ، لكنها لم تنجح سوى في تأكيده .

ـ يا لها من غرفة صغيرة مريحة . تبدو رائعاً . . رائعاً جداً ، يا حبيبي . متى ستخرج من المستشفى ، بحسب رأيك؟

فقال واجماً : «ليس لدي أدنى فكرة . من الأفضل أن ترحلي ، يا دانا . ما كان على فلورا أن تطلب منك الحضور . لا أريد زواراً» .

أسبغت شمس الخريف على شعرها وبشرتها هالة ذهبية ، وجعلت عينيها الخضراوين تتألقان . كانت قد ارتدت ملابس بسيطة ، ثوب أزرق حريري قصير يكشف عن ساقيها الطويلتين اللتين اكتسبتا لوناً أسمر خلاب من جراء تعرّضهما للشمس . لكن جمالها لم يثر فيه أي شعور . فقد اكتشف المرأة الحقيقية في تلك الصدفة الجميلة ، ولم يعد يبالي بها .

تجاهلت جفاءه ، وجلست على طرف سريره ، تبتسم له ابتسامة لعوب . أسبلت أهدابها المكحّلة فوق عينيها الخضراوين ، وقالت بغنج : «حبيبي ، ألست مسروراً لرؤيتي ولو قليلاً؟ حتى إنك لم تعانقني!» .

ثم مالت نحوه وقد تصلب جسدها وأغمضت عينيها ، وكأنها الطريقة الوحيدة لتحتمل لمسته .

فشحب وجهه غضباً ، وصرخ بها : «هل أنت صماء؟ أخرجي من هنا! أخرجي عليك اللعنة! أخرجي!» .

عند ذلك انفتح الباب واندفعت منه ممرضة قائلة : «سيد ويست ، صوتك مسموع في أرجاء المستشفى كلها . أرجوك أن تكفّ عن الصراخ» .

ردّ بحدة : «أخرجيها من هنا!» .

www.elromancia.com

فما كان من دانا إلا أن نزلت عن السرير وهربت مبتعدة، وهي تتظاهر بالحزن وخيبة الأمل. وعندما أقفل الباب خلفها، راح زاكاري يضحك من دون توقف، فظنت الممرضة أنه سيصاب بانهيار عصبي، لذا استدعت الطبيب.

حين وصل هذا الأخير، طمأنه زاكاري قائلاً: «لا تقلق يا دكتور، أنا بخير. كل ما في الأمر أن امرأة زارتني. ولم تستطع أن تتحمل قبلة ضفدع خشية ألاّ يتحوّل إلى أمير أحلامها الجميل».

علّق على ما جرى مازحاً ساخراً، لكن ردة فعل دانا انطبعت في أعماقه، وجعلته يدرك حقيقة مظهره. فزائراته من النساء اقتصرن على فلورا وبعض قريباته، والممرضات اللاتي تدرّبن على عدم إظهار مشاعرهن إزاء إصابات كهذه. لقد عكست دانا مشاعر معظم النساء حيال شكله.

ربما هذا هو السبب الذي منعه من البحث عن فتاته ذات الرداء الأبيض... إذ خاف أن يتملكها الرعب من آثار الجروح والحروق في وجهه، إن هو عثر عليها.

وليكف عن التفكير في ذلك، لبس كنزة وسترة قديمة وخرج إلى الحديقة ليقطع الحطب.

بعد دقائق،، سمع صوت سيارة، وكان نادراً ما يزوره أحد. اضطرب لهذه المقاطعة ولم يسرّه الأمر. ثم توجّه إلى البوابة ليرى امرأة تقف أمامها.

وقف يتأملها للحظة وتملكه شعور غريب بأن وجهها مألوف. لكن، وبعد إمعان النظر فيها، لم يتذكر أين رآها من قبل. كان وجهها الرقيق الملامح، شاحباً بعض الشيء، وقد أبرزت تقاطيعه تسريحة شعرها المشدود إلى الخلف.

كان آخر زائر للكوخ، صحافياً يسعى وراء قصة يكتبها. لكن

زاكاري طرده، وأكد له أنه سيدق عنقه إن عاد مجدداً.

أترى هذه المرأة صحافية، هي أيضاً؟ أخذ يتساءل عن ذلك وهو مقطب الجبين: «من أنت؟ ماذا تريدين؟».

لم يحاول إخفاء ضيقه وعدائيته، وهو يطرح أسئلته عليها.

وعندما ذكرت أنها ممرضة من مستشفى «وينبري»، أدرك فجأة أنه تذكرها رغم مرور الأيام وقصر المدة التي أمضاها هناك.

لم يحبها حين كان في المستشفى، فقد كانت باردة رسمية المظهر. وكانت ملابس التمريض التي ترتديها تصدر صوتاً مزعجاً حين تتنقل في القسم. كان يكره هذا النوع من النساء، فهي متسلطة كأخته مشغولة دوماً، منظمة. وقد دأبت على التحدث إليه بصوت يرتفع وينخفض مهدئاً مسترضياً وكأنه طفل يتدلل، فيما عيناها تعكسان الأسى الذي يعتصرها.

وما كان زاكاري ليحتمل ذلك. فهو يرفض شفقة الناس، ويفضل أن يهينهم. أو يمنعهم من الإشفاق عليه، على الأقل.

لهذا تظاهر بالاعتقاد بأنها جاءت لتراه لفرط جاذبيته. مع أنه يعلم أن الانجذاب هو، طبعاً، آخر ما تشعر به. وقد أدرك ذلك من النظرات التي رمقته بها، إذ عكست عيناها مشاعر لا يمكن أن تفسر سوى بالرعب. لا بد أنها اعتقدت أن وجهه أصبح طبيعياً تقريباً بعد عمليات التجميل الباهظة التكاليف التي خضع لها... لكن زاكاري كان يعلم أن الحقيقة خلاف ذلك. فقد أعلمه الجرّاح أنه يحتاج لعمليات أخرى كي يعود مظهره كما كان نسبياً.

وهكذا سخر منها، وأمسك بها يعانقها. فتهاوى جسمها وسقطت جاثمة على ركبتيها. فما كان منه إلا أن هرع يحضر لها شراباً ينعشها.

وعندما عاد وجدها قد تمالكت نفسها وتوهج وجهها احمراراً من شدة الارتباك.

ـ آسفة، ماذا ستظن بي؟ لا أدري ما الذي حدث لي. . .

فقال باختصار، وهو يضع الشراب بين يديها: «ما كان علي أن أعانقك».

راحت تنظر إلى الشراب وكأنه سم. فأمسك بمعصمها وأرغمها على رفع الكأس إلى شفتيها.

ابتلعت جرعة بالرغم منها وهي ترتجف. فترك زاكاري يدها، وجذب كرسياً، جلس عليه قبالتها: «والآن، ماذا تريدين يا سيدتي؟».

ـ اسمي جيلبي. . . وأنا. . . أبي هو هاري جيلبي.

سكتت ورفعت نظرها إليه وكأنها تتوقع منه أن يبدي ردة فعل لذكر اسم أبيها. لكن زاكاري نظر إليها من دون أن يرف طرفه.

ـ هل سبق وتعرفت إليه من قبل؟ آسف، ولكن. . .

ـ كان أبي في السيارة الأخرى.

مضت لحظة لم يكن متأكداً فيها مما عنته، فحدق فيها مقطباً جبينه.

ـ السيارة الأخرى؟

نظرت في عينيه بثبات عندما بدأت الحقيقة تتجلى له. ثم أومأت برأسها.

فقال بصوت أجش: «هو. . . هل كان هو. . . السائق الآخر؟».

عادت تومىء برأسها، وقد شحب وجهها.

وأطلق زاكاري سيلاً من الشتائم، فاضطربت قائلة: «لم يكن ذلك من طبعه، يا سيد ويست. لم يكن غافياً، وليس سائقاً متهوراً. لقد كان. . . كان يعاني من توتر هائل و. . . أنا لا أحاول اختلاق أعذار له، ولكن. . .».

ـ إن لم تكن هذه أعذاراً، فما هي إذن؟

ورآها تعض شفتها السفلى، فتنبه لشكل فمها الكبير وشفتها السفلى

الممتلئة التي تتناقض مع تسريحة شعرها المتزمتة وسلوكها المحافظ.

ـ أردت فقط أن أوضح لك الأمر، كي أجعلك تفهم سبب ما حدث.

ـ هل كنت في السيارة معه؟

ـ يا ليتني كنت، وإلا لما حدث ما حدث.

ـ كان يتقدم نحوي بسرعة جنونية عند المنعطف، فلم أتمكن من تجنبه. . . هل أخبرك بهذا؟

ـ نعم. لقد أخبرني. إنه يلوم نفسه على ما حصل ويكاد الندم يقتله، صدقني!

ـ عظيم! هل أصيب هو أيضاً؟

ـ قليلاً. . .

ـ ماذا يعني هذا بالضبط؟

فهمست: «رضوض وصدمة».

ـ وكم مكث في المستشفى؟

فأجابت مكرهة: «ليلة واحدة».

ـ منذ ذلك الحين وأنا أتردد إلى المستشفى.

ـ أعلم ذلك. وأنا آسفة جداً لما حدث لك، يا سيد ويست. وكذلك أبي. أرجو أن تصدقني، إنه يدرك سوء فعلته وهذا يثقل عليه للغاية.

ـ ليس بقدر ما يثقل عليّ!

وأكمل قائلاً: «لماذا جئت، على أي حال؟ وماذا تريدين؟».

وقفت بدورها ووضعت كأس العصير على منضدة بجانبها:

ـ جئت أتضرع إليك. . . أعلم أن اللوم يقع على أبي، وهو لا يعترف بذلك، ولكنك. . . ستشفى تماماً يا سيد ويست، صدقني. لديّ خبرة واسعة في هذا المجال. وبالرغم من أن التحسن بطيء، إلا أنك ستعود في النهاية كما كنت.

www.elromancia.com

ـ لن يكون وجهي طبيعياً أبداً.

بلغ غضب زاكاري ذروته. ورفع قبضته وكأنه يهم بضربها. سكتت قليلاً، مقطبة، ثم قالت بصوت بطيء جاد:

ـ أنت مخطىء. يمكنني أن أفهم سبب قولك هذا، ولكنك مخطىء يا سيد ويست. سيستغرق الأمر سنة أو نحو ذلك، لكن الجراحة التجميلية تقوم بالمعجزات، لا سيما إن كنت بين يدي أخصائي لامع، وأنا أعلم أنك كذلك. إنه جراح ممتاز، ذائع الصيت في البلاد.

ـ ومع ذلك لم يزعم أنه سيتمكن من أن يعيد إليّ وجهي كما كان!

وضحك زاكاري فجأة حين تذكر دانا، وأضاف:

ـ كان يجب أن تري وجه آخر صديقة لي حين زارتني بعد عمليتي الأخيرة! ظننت أنه سيغمى عليها.

اضطربت لويزا وازداد شحوبها، وهي تحدق فيه بثبات:

ـ أنا واثقة من أنها كانت قلقة عليك وحسب. أنا لا أنكر أن العلاج سيكون بطيئاً، لكنني أؤكد لك أنك، مع الوقت، ستستعيد وجهك القديم.

ـ لا تكذبي عليّ. أنا أعرف ما أراه في المرآة. فبشاعتي لا تضاهى، وسأبقى هكذا إلى الأبد. لن يغمى على امرأة حين تراني، إلا رعباً، كما حدث لك.

احمر وجهها وحوّلت نظراتها عنه: «أنا لم...».

ـ بلى. فقد توهج وجهك حين عانقتك، فاضطررت لحملك إلى هنا.

ـ لم يكن هذا بسبب...

ضحك زاكاري غاضباً؛ وقال: «بل كان، فلا تزعجي نفسك بالتظاهر بالعكس. إنني أعرف سبب إغمائك».

أسبلت أهدابها، وتوقفت عن الاحتجاج. وأخذ ينظر إليها بسخرية،

ليقول أخيراً بإيجاز:

ـ أنا لا ألومك، فأنا أتأمل وجهي في المرآة يومياً. ويمكنني أن أتفهم سبب شعورك بالغثيان حين لمستك.

فانفجرت قائلة: «لا».

ورفعت نحوه عينين يفيض منهما كدر وأسى واضحين، لم يستطع الشك في صدقهما: «أرجو صدقني. لم يكن ذلك شعوري، على الإطلاق».

تعب زاكاري من هذا الحديث، فهو يفضل نسيان ما حدث له. وكان يحاول جاهداً أن يستعيد حياته الطبيعية. وهكذا قال بصبر فارغ: «لا بأس، فلننس ذلك. ولنعد إلى حضورك، ما الذي تريدينه مني، يا أخت جيلبي؟».

ـ أنا لست واثقة من...

وتلعثمت، ثم تنهدت: «هل أخبرك محاميك... هل تعلم...؟».

ـ تكلمي، بحق السماء.

ـ نسي أبي أن يجدد بوليصة التأمين ضد الحوادث.

حدق فيها غير مصدّق. لقد أمضى في المستشفى فترة طويلة ترك أثناءها تفاصيل الإجراءات القضائية لمحاميه. ورفض أن يناقش الأمر معه بل اكتفى برواية ما حدث، لذا لم يعلم أن تأمين هاري جيلبي لا يغطي الحادث.

فرد قائلاً: «إنك تمزحين!».

هزت رأسها، لكنها بقيت عاجزة عن النطق.

حدق زاكاري في عينيها، في البحيرتين الزرقاوين العميقتين. لم يسبق له أن رأى عينين بمثل هذه الزرقة،، وقد زاد من تألق لونهما شحوب وجهها. زرقة قاتمة على بياض... ولطالما عشق التناقض.

ثم أخذ يفكر في أن شحوب وجهها طبيعي وقلقها مبرر، وأن لا عجب في أنها هنا تتوسل إليه! أي نوع من الرجال هو أبوها؟ ولماذا أرسلها تتضرع إليه بدلاً من أن يحضر هو شخصياً، أو يرسل محاميه؟

وقال بصوت مرتفع: «ما الذي جعله عديم المسؤولية بهذا الشكل؟».

ابتلعت ريقها، وبدا التشنج على عنقها الطويل الناصع البياض:

ـ كان متوتراً للغاية، وما زال. . . فهو يعاني من صعوبات مالية لم يجد مخرجاً لها، لذا نسي أن يجدد بوليصة التأمين. كان ينوي ذلك، ولكن. . . أعلم أن هذا غباء، ولكن. . .

ـ الغباء ليس عذراً!

ـ أنا لا أطلب منك أن تعفيه. . .

ـ هذا حسن، لأنني لن أفعل. ولِمَ أفعل؟

أشاحت بوجهها عنه، ولاحظ عينيها المغرورقتين بالدموع.

ـ ستحطم حياته إذا ما اضطر للدفع على الفور. إن بيته مرهون، وكذلك مصنعه. . . وليس لديه أموال في حسابه المصرفي. سيتوجب عليه بيع بيته وربما شركته أيضاً، إن حكمت لك المحكمة بتعويض ضخم.

ـ هذه مشاكل لا تعنيني، بل تعنيه هو! كما أن الحادث ذنبه، وكذلك نتائجه.

وحدق فيها ثم أكمل كلامه ساخراً: «لا بد أنك ساذجة جداً أو متفائلة جداً! فإن جئت راجية أن أتنازل عن حقي في التعويض لمجرد أنك رويت لي قصة حزينة عن تحطم حياة أبيك. . . !».

ـ ظننت فقط أن. . .

فقاطعها بصوت جازم: «لا يهمني سوى حياتي أنا، وقد دمّرها أبوك في الربيع الماضي».

فصرخت بصوت معذّب: «أعرف مقدار سوء إصابتك، لكنك

ستشفى وبعد سنة ستعود إلى ما كنت عليه».

ـ وأكون قد خسرت سنوات من عمري! فقد دمّر ذلك الحادث العمل الذي أمضيت سنوات في إنجازه. كما عانيت من آلام مبرحة منذ ذلك الحين، ولن تنتهي معاناتي قبل وقت طويل. حتى إنني لم أعد قادراً على العمل. فأنا لم أرسم شيئاً منذ الحادث. حاولت جاهداً أن أرسم، لكن يبدو أن الحادث قتل حافزي. وفي كل مرة أمسك فيها الفرشاة، أشعر وكأن يدي منفصلة من ذهني. . . هل لديك أدنى فكرة عن هذا الشعور؟ فعدم القدرة على الرسم يعني، بالنسبة إلي، الشلل، بل الموت.

كانت تصغي إليه وكأنها استحالت حجراً، أما هو فكان الشر يتطاير من عينيه. فكل هذا الاستياء والغضب كان يغلي في داخله منذ الحادث، وقد شعر بارتياح غريب حين تمكّن من الإفصاح عنه.

هذه الفتاة غير مسؤولة عما حدث له، بل تقع المسؤولية على أبوها. ويبدو أنها تشعر أن أباها قد تأذى، هو أيضاً، من الحادثة، مما جعل زاكاري يجن.

ـ لا تطلبي مني أن أشعر بالأسى من أجل أبيك! لو كنت قديساً لأمكنني ذلك، لكنني لا أدعي أنني قديس. عندما ترفع القضية إلى المحكمة سيتقرر التعويض وفقاً للبراهين. وعلى أبيك أن يتحمّل قرار المحكمة.

ـ ولكن لو أنك فقط. . .

فثار زاكاري مجدداً وقال ساخراً: «هل تظنين حقاً أن بإمكانك إقناعي بإسقاط حقي في التعويض؟».

ولمعت عيناه حين خطرت بباله فكرة أخرى. فأضاف: «أم لعلك جئت تقدمين لي بديلاً عن المال؟».

نظرت إليه وكأنها لم تفهمه، وقد بدا في عينيها الزرقاوين الارتباك.

أخذ زاكاري يضحك، وراحت عيناه تجولان على مفاتن جسمها، وساقيها الرشيقتين في البنطلون الأسود الضيق. وظهر في عينيه تقدير واهتمام واضحين.

فهمت مراده فاحمر وجهها، وأخذت تتنفس بصعوبة، فابتسم لها ساخراً، ثم قال ببطء: «آسف. ولكنك لست النوع الذي أفضله. فأنا أفضل الشقراوات الفاتنات. أنت نحيلة جداً، ولا أظنك تملكين الخبرة الكافية».

اشتدت حمرة وجهها، ورمقته بنظرات حانقة. ولو أمكن للنظر أن يقتل لسقط صريعاً عند قدميها في الحال، أخذ يفكر في هذا متشفياً. وإذا به يتساءل عما أفقده أعصابه إلى هذا الحد، فجعله يرغب في تعنيفها؟ فالذنب في ما حدث لم يكن ذنبها على أي حال! ما الذي جعله يقدم على فعل هذا؟ ما من داع لإهانة هذه الفتاة لمجرد أن أباها سبّب الحادث.

أقدم على هذا، فقط، لأنه شعر بوخزة اهتمام حين أخذ يتأمل جمالها، هذا هو السبب. لقد كذب حين قال إنها ليس النوع الذي يفضله، إذ ليس لديه نوع معين يفضله. كان يحب النساء، وحسب. ويمكن لهذه المرأة أن تصبح المفضلة لديه، لكنها قد تفضل الموت على ذلك. لقد أغمي عليها عندما عانقها، ولو أدركت أنه يشعر بميل نحوها لركضت من دون توقف ومن دون أن تلتفت إلى الوراء حتى تضع بينهما مسافة طويلة.

غمغمت تقول باضطراب: «لم أعرض عليك أي شيء من هذا النوع».

فضحك بمرارة: «أحقاً؟».

ـ أردت فقط أن أقترح... حسناً، ترتيباً بيننا...

ـ بيننا؟ وما نوع الترتيب الذي تعرضينه؟ أم عليّ استعمال مخيلتي؟

ونظر إليها من جديد مقيّماً، فردت عليه تلك العينان الزرقاوان بشرر

ناري. يا لها من سيدة صغيرة متّزنة، حسنة السلوك! هل لهذا اختارت التمريض؟ هل الملابس الشبيهة بلباس الراهبات تناسبها أكثر؟

ردت وقد احمر وجهها: «لا، بل هو بينك وبين أبي. لو سمحت له بدفع التعويض على مراحل، لن يخسر بيته وشركته».

كان في صوتها توتر ولهفة جعلا زاكاري يشعر بشيء من العطف نحوها، فقال: «لا تخافي. أنا واثق من أن المحكمة ستحكم بما يتماشى ووضعه».

ـ أحقاً؟

لكن لم يبدُ في عينيها الاطمئنان.

فأضاف بمزيد من الرقة: «تأخذ المحكمة وضع الناس في الحسبان، عندما تقرر قيمة التعويض. ولا شك أنها لن تدفعه إلى بيع بيته».

فقالت بقنوط: «ربما، لكنك لا تفهم الوضع... فهو مدين بمبالغ ضخمة، ما يجعله غير قادر على دفع مبلغ كبير لك أيضاً و...».

سكتت وقد تاهت نظراتها ثم اندفعت تقول: «ويخاف أن تهجره زوجته، إن هي اكتشفت إفلاسه».

فقال ساخطاً: «إذا كان مثقلاً بالديون فهذا ليس ذنبي!».

ـ هذا صحيح. ولكن إذا انتظرت سنة واحدة قبل أن تقبض أي تعويض تقضي به المحكمة، فهناك أمل كبير في ألا تكتشف زوجته الحقيقة. إنه واثق من أن أرباحه ستتضاعف خلال سنتين، من ثم سيصبح بإمكانه أن يدفع لك تدريجياً.

ـ ويفترض بي أن أنتظر؟

فألقت عليه نظرة تعيسة مترددة: «هل سيكون ذلك صعباً جداً عليك؟ هل أحوالك المادية صعبة، أنت أيضاً؟».

ـ أنا لا أموت جوعاً. أخبرني، هل أنا على صواب في تكهني بأن

زوجة أبيك ليست أمك؟

ـ نعم، لقد ماتت أمي منذ سنوات.

ـ متى تزوج أبوك؟

ـ بعد وفاتها بعامين.

بدت في عينيه الرماديتين نظرة مازحة: «وأنت لا تحبين زوجة أبيك؟».

ـ نحن غير منسجمتين.

نظر إليها متفحصاً بفضول وبشيء من العداء. هذا هو الوجه الذي يذكره بإقامته القصيرة في المستشفى حيث تعمل. لقد استيقظ في إحدى الليالي فرأى ذاك الوجه الأبيض البارد قرب سريره، وتلك العينين الزرقاوين الجامدتين والشعر المرفوع إلى الوراء. رأى هذا المظهر الذي يجعلها أشبه براهبة. لقد كرهها حينذاك من النظرة الأولى. لكنها تبدو اليوم مختلفة، وهي ترتدي هذه السترة الحمراء والكنزة البيضاء التي تلتصق بجسمها وتجعلها تبدو في غاية الأنوثة.

وشعر زاكاري بجسمه يقشعر.

ـ لم لا تحبينها؟

فردت مدافعة عن نفسها: «هي لا تحبني».

فابتسم وسأل: «ولكن من البادىء، أنت أم هي؟».

استطاع أن يتخيل الجفاء الذي قابلت به تلك المتطفلة. إذ لا شك أن أباها أصبح مقرباً منها، منذ وفاة أمها. فقد جمع بينهما الحزن، ولا بد أنها صدمت حين نسي أبوها حزنه وعثر على امرأة أخرى. كيف أمكنه ذلك؟ لقد طرحت هذا السؤال على نفسها مراراً وتكراراً من دون شك. إذ يفترض أن يتملك أبوها الشوق والحنين إلى أمها إلى الأبد، لا أن يتزوج امرأة أخرى بعد سنتين.

أجابت وقد توتر وجهها من الغضب:

ـ كان يمكن أن أحبها لو لم تظهر بوضوح أن وجودي في البيت غير مرغوب فيه! لم تشأ أن يرانا الناس معاً. إذ قد يظنون أنها أختي، فهي تكبرني بحوالي سنتين فقط.

ـ أحقاً؟ كم يبلغ أبوك من العمر؟

ـ خمسون سنة. كان وأمي صغيري السن عندما تزوجا.

ـ وكم يبلغ عمر زوجة أبيك؟

ـ ستبلغ الثلاثين في عيد ميلادها القادم.

أومأ وهو ينظر إليها مفكراً: «وأنت ثمانية وعشرون؟».

ـ سبعة وعشرون.

فقال بدهشة واستغراب: «تبدين أصغر سناً».

إذ كان يظن أنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها.

وأضاف بجفاء: «لا بد أنه المظهر العذري».

علت حمرة الخجل وجهها، فعلّق ساخراً: «العذرية ليست كلمة بذيئة، كما تعلمين».

ـ جعلتها تبدو كذلك.

فضحك وأخذ يتأمل وجهها الجميل وخصرها النحيف وساقيها الرشيقتين.

ـ أنت حساسة جداً إزاء هذا الموضوع.

ثم سألها فجأة: «هل أنت كذلك؟».

اضطربت لسؤاله، واستفهمت: «ماذا؟».

فقال برصانة: «عذراء».

تلعثمت وقد احمرت غضباً: «أنا. . . أنا. . . أنا لن أجيب على سؤال كهذا!».

www.elromancia.com

ـ لدي شعور بأنك كذلك .

قالت له متوعدة : «إذا كنت ستتفوه بنكات حمقاء ، فسأذهب» .

ـ أخبريني المزيد عن زوجة أبيك .

استدارت على عقبيها وأسرعت نحو الباب . فصاح بها : «لم تحصلي على جوابي بعد» .

فنظرت إليه ببرودة : «حصلت أنت على التسلية ، يا سيد ويست . وأنا لن أبقى هنا لأكون هدفاً لمزاحك وظرفك» .

ـ لقدقضى الحادث على روح النكتة عندي .

وهز كتفيه رافضاً أن يقدم اعتذاراً صريحاً .

فقالت وقد بدا التوتر على فمها الشاحب : «هذا ما لاحظته» .

ـ لكنني مستعد للتحدث مع أبيك بشأن الترتيبات كي لا يخسر بيته أو عمله أو زوجته .

خطت نحوه وقد انفرجت شفتاها عن شهقة وتألق وجهها بلهفة عارمة : «أحقاً؟ ألست تسخر مني مجدداً؟» .

ـ بل أنا جاد . إنما بشرط واحد .

توترت وعاد الحذر إلى عينيها : «ما هو شرطك؟» .

ـ أن تسكني معي هنا ، طوال المدة التي أحددها .

* * *

٥ ـ جرح آخر

شعرت لويزا وكأنها تلقت صفعة ، فشحب وجهها غضباً . وقالت : «كان عليّ أن أتمتع بحكمة أكبر وألاّ أصغي إليك . هل تشعر بتحسن إن تصرفت بهذا الشكل البغيض؟ أنا آسفة لأجلك . ولا أريد أن أكون مثلك ولو للحظة واحدة ، ليس فقط بسبب ما عانيته ، بل بسبب الضرر الذي لحق بعقلك .

لم تنتظر جوابه ، بل استدارت وأسرعت تغادر الكوخ . كان ضباب الصباح قد انجلى وأصبحت الرؤية أوضح . . . فرأت الحقول الممتدة من جهة ، وبحر الشمال الرمادي اللون من الجهة الأخرى . وما أن فتحت سيارتها ، حتى خرج زاكاري ويست ووقف عند باب الكوخ . راح الهواء يشعث شعره القاتم الكث ، فغطى وجهه المشوّه .

رفع شعره عن وجهه ، وناداها قائلاً : «إن عرضي جاد . إذا قررت قبوله ، أعلميني بذلك قبل وصول القضية إلى المحكمة . بعد ذلك يكون الأوان قد فات» .

تجاهلته وركبت سيارتها لتبتعد عنه . لكن الخوف والتوتر اللذين تملكاها بعد تلك المواجهة معه جعلا قيادتها عشوائية ، فكادت تصطدم بسيارة أخرى . لذا ركنت سيارتها عند طرف قرية «تيرتون» ، ريثما تهدأ أعصابها .

ترددت أقواله في ذهنها ، فزاد اضطرابها وراحت ترتجف غيظاً .

لقد استنتج أنها تفتقر إلى الخبرة، وجل ما أغاظها أن استنتاجه صحيح. كيف عرف ذلك؟ وهل يبدو هذا جلياً على وجهها؟ وما كان منها إلا أن أخرجت من حقيبتها مرآة وراحت تحدّق فيها.

ما الذي كشف أمرها؟ وهل تخلّف التجارب علامات على الوجوه؟

وفكّرت في أنها لم ترتبط يوماً بعلاقة جدية. كما تمنعها قناعاتها ومبادئها من إقامة علاقة غير شرعية، خارج إطار الزواج. لكنها لم تفهم كيف اكتشف ذلك، وبهذه السرعة.

تأوهت غاضبة وعضت على شفتها. كفّي عن خداع نفسك يا لويزا! فأنت لم تقعي يوماً في شباك الحب حتى ترتبطي جدياً. وها أنت الآن تنجذبين إلى شخص تسرّك رفقته ولكن علاقتكما تفتقر إلى العواطف المحمومة التي تجمع بين قلبين متحابين.

لم تخالجها يوماً هذه المشاعر الجامحة. ولم تكن تعرف معناها حقاً... قبل أن يعانقها زاكاري ويست!

ارتجفت وأغمضت عينيها. لا زالت تلك اللحظة محفورة في ذاكرتها، وصعب عليها أن تصدق ما حدث. كانت تعلم أنها انجذبت إليه حين رأته للمرة الأولى في المستشفى، حتى وإن بدت حاله أسوأ مما هو عليه الآن.

لكن إحساسها نحوه لم يكن مجرد انجذاب جسدي، إنما مشاعر مرهفة تملكتها. فكل حركة من حركاته أو نظرة من نظراته أو نفس من أنفاسه أصبح ذو أهمية بالنسبة لها.

راحت تعنّف نفسها على الأفكار التي راودتها، ثم انطلقت بسيارتها من جديد. لن تخبر أباها بزيارتها لزاكاري ويست، فسيتملكه الذعر إن علم بالأمر. كما كانت واثقة من أن زاكاري لن يذكر الأمر لأحد.

كان لقضاء عيد الميلاد في المستشفى نكهة خاصة. فقد ساد في الأقسام جوّ رائع، بالرغم من أن بعض المرضى بكى لافتقاده أسرته. وكان لقسم

الأطفال أثر كبير في نفوس الراشدين. فقد أبدوا تأثراً أكثر من الأطفال أنفسهم الذين حظوا بالدلال والرعاية، وتدفقت عليهم الهدايا من أسرهم ومن موظفي المستشفى على حد السواء.

وفي القسم حيث تعمل لويزا، لم يشعر بعض المرضى بحلول العيد لسوء حالتهم. وكان احتفال قسمها بالعيد أهدأ منه في الأقسام الأخرى.

كان أبوها قد قدم لها قبيل سفره مع نوبل إلى سويسرا، عباءة زرقاء اللون. تلاقيا، هو ولويزا، فشربا القهوة وتبادلا الهدايا. ولم يطل اللقاء، إذ كان عليه أن يسرع إلى البيت لحزم أمتعته. وأهدته لويزا آخر رواية لمؤلفه المفضل فضلاً عن كنزة مناسبة للتزلج.

في اليوم التالي، تطوعت لويزا للعمل صباحاً في قسم الطوارىء. فقد كان القسم بحاجة ملحّة إلى الممرضات لكثرة الحوادث أيام العيد. فهنا رجل انغرزت صنارة الصيد في راحته، وهناك امرأة جرحت إصبعها جرحاً بالغاً أثناء تقطيعها ديك الحبش، وصبي صغير وقع من على دراجته فكسر معصمه، وآخر أصيب بكسر في ضلعه وهو يلعب «الركبي».

وقالت لها الطبيبة الشابة، وهما تختلسان بضع دقائق لشرب القهوة: «شكراً على المساعدة لتي تقدمينها لنا».

فأجابت بإخلاص: «لقد استمتعت بذلك. فالتغيير مفيد كالعطلة».

فقالت الطبيبة بجدية: «لكنني أفضل العطلة».

- حسناً، أنا أيضاً... لكن لا تفشي هذا السر لأحد.

وضحكت لويزا فارتسمت الابتسامة على وجه الطبيبة الهندية. لكن عينيها أظلمتا حين أضافت لويزا: «على أي حال، أسرتي بعيدة... لقد سافرت إلى سويسرا لقضاء العيد».

فعلقت الطبيبة «كومار» متنهدة: «وكذلك أسرتي. رغم أننا لا نحتفل بعيد الميلاد».

www.elromancia.com

- وهل أسرتك في سويسرا؟
- بل في دلهي.
فأخذتا تضحكان إلى أن دفع الباب مريض جديد. فوضعت «أنديرا» فنجانها وقالت: «ها قد عدنا إلى العمل».
نهضت لويزا متباطئة وقد اضطربت وعلت الحمرة وجهها. ماذا يفعل زاكاري ويست هنا؟
ابتعدت «أنديرا»، فيما تقدمت لويزا نحوه لتعترض سبيله بعينين عدائيتين: «ما الذي تفعله هنا؟».
قابل نظراتها بجفاء، ثم قال ببطء بعد أن مد يده: «لم أكن أبحث عنك، فلا تنزعجي».
عندها رأت جرحاً عميقاً تحت إبهامه. ولاحظت أن النزيف قد توقف، لكن الجرح بدا بالغاً.
- كيف حدث هذا؟
وأمسكت بيده تتفحص الجرح بإمعان. كان الجرح نظيفاً وبدا وكأنه قُطع بسكين، لذا لم تُدهش حين قال: «كنت أقطع الحطب، وجرحت يدي بالفأس».
فردت توبخه: «كان عليك أن تحترس أكثر».
- نعم، يا معلمتي.
رفعت بصرها نحوه، وقالت بجدية: «لست بحاجة إلى مزيد من الإصابات، إذ يمكن لهذا الجرح أن يؤدي إلى التهابات خطيرة. متى أخذت آخر مرة حقنة الكزاز؟».
- منذ سنوات، على ما أظن.
- حسناً، من الأفضل أن تفحص الدكتورة كومار الجرح. ثم أعطيك أنا حقنة كزاز وأنظفه لك قبل تقطيبه.

فرد باللهجة نفسها، وقد بانت السخرية في عينيه: «نعم يا معلمتي».
بدا التوتر على وجهها وهي تتوجه نحو مكتب الطبيبة. إنه مصمم على مضايقتها لكنها لن تدعه يفعل، بل ستحافظ على هدوئها.
قرعت باب أنديرا ودخلت مع زاكاري إلى الغرفة الصغيرة. وكما توقعت، طلبت منها الطبيبة أن تعطيه حقنة كزاز وتنظف الجرح ثم تعود بالمصاب لتقطب جرحه. أشارت لويزا إلى زاكاري بالخروج من المكتب.
وعندما راحت تعدّ الحقنة، عبس قائلاً: «لشدّ ما أكره الحقن».
فردت دون شفقة: «الكل يكرهها».
- لم يقاسوا منها بقدر ما قاسيت.
كان شجاعاً. هذا ما خطر في بالها، وهي تسترق النظر إليه سراً أثناء حقنها له. أغمض عينيه للحظة، وقد ظهر التوتر جلياً عليه، وسمعته يتنفس بعمق، لكنه لم ينبس بكلمة واحدة، بل تنهد حين انتهت من عملها.
استقامت في وقفتها وهي تشعر نحوه بالعطف. وودت لو تستطيع التخفيف عنه، وضمه بين ذراعيها كطفل صغير. لكنها، لم تجرؤ على ذلك وهي تتخيل ملامحه، وردة فعله، وكلامه الجارح.
سألها بصوت ثابت: «متى انتقلت إلى هذا القسم؟».
- أنا لم أنتقل إليه، إنما أعمل هنا اليوم فقط. فالعيد يقلب أنظمة الأقسام. إن الممرضة العاملة في هذا القسم لديها أطفال، وهي تحتاج لقضاء العيد معهم. وبما أن عدد الممرضين غير كافٍ، وكي أساعدهم، تطوّعت للحلول اليوم مكانها.
- هل أخذت عطلة يوم العيد؟
- هيا بنا. علينا أن نعود إلى مكتب الدكتورة كومار لتقطيب جرحك.
فلحق بها وهو يقول: «كنت تعملين في الأمس وتطوّعت للعمل

www.elromancia.com

اليوم؟ وماذا عن أسرتك؟ ما رأيهم في الأمر؟».

ـ أبي وزوجته في سويسرا، يتمتعان بعطلة على الثلج.

ـ وهكذا لم يكن لديك أي مكان تقصدينه يوم العيد.

شعرت به يراقبها فحاولت أن تحافظ على سكون ملامحها وهدوء صوتها: «هذا صحيح».

وقرعت باب أنديرا ثم أفسحت له الطريق ليمر أمامها، وقد شعرت بالارتياح إذ تخلصت من أسئلته الشخصية.

أخذ يراقب تقطيب الجرح بصبر، والطبيبة تعمل بيديها الصغيرتين الماهرتين. ثم قال: «لا بد أنك ماهرة في التطريز».

فرفعت عينيها نحوه وابتسمت بابتسامة عريضة: «هذا صحيح. علمتني أمي الخياطة منذ استطعت الإمساك بالإبرة. أرادت أن أصبح خياطة».

ـ ما كان رأيها حين علمت أنك تريدين أن تكوني طبيبة؟

ـ آه، أمي رجعية، فالفتيات برأيها لسن بحاجة إلى التعلم.

ـ أرادتك أن تتزوجي؟

ـ من حسن الحظ أن أبي لطالما تمنّى أن يكون طبيباً. لذلك قال لي إن عليّ أن أجتهد في دروسي إن أردت أن أدرس الطب. وهكذا اجتهدت في دروسي لأصبح طبيبة.

ـ وهل تقبّلت أمك ذلك؟

فابتسمت أنديرا ابتسامتها المميزة وردت: «عندما يقرر أبي أمراً ما، تتقبله أمي دوماً».

فقال لها باسماً، وهي تنهي عملها: «لا بد أنه فخور بك، لقد قمت بعمل ممتاز هنا. وأنا خبير في ذلك، صدقيني. إذ خضعت لعمليات عدة على يد بعض كبار الجراحين في لندن».

ضحكت أنديرا وهي تجيبه: «شكراً. سأتذكر دوماً هذا الإطراء. أبي مسرور جداً لأنني أصبحت طبيبة. في الواقع، عندما بدأت عملي هنا، راح يتردد عليّ ليراني ويخبر الناس أنني ابنته».

ـ هذا حسن، ويغريني بأن أتردد أنا أيضاً على هذا المكان وأخبر الناس بأنك قطبت جرح يدي.

ضحكت أنديرا مجدداً وقد احمر وجهها:

ـ يجب ألا تتقرب مني، يا سيد ويست. فأنا مخطوبة لرجل غيور جداً يعمل في هذا المستشفى. وقد لا يحب هذا إذا سمعه منك.

أصغت لويزا إلى هذا الحديث بدهشة وشيء من الضيق. فهي تعرف أنديرا منذ شهر، لكنها لم تجعلها يوماً تتحدث إليها بهذه العفوية عن نفسها وأسرتها وجذورها. فكيف انسجم زاكاري ويست، وهو العديم التهذيب معها، مع أنديرا؟

كانت لويزا على علم بخطبة أنديرا. فخطيبها، «جيريش»، يعمل في قسم «الأنف والأذن والحنجرة» منذ سنوات. كان رجلاً جذاباً، وهو محبوب جداً من المستشفى.

نهض زاكاري ليخرج، فقالت له أنديرا بحزم: «لا تستعمل يدك كثيراً وذلك لعدة أيام».

ـ سأكون حذراً، اطمئني.

تبعته لويزا إلى الخارج: «يجب أن أحدد لك موعداً لفك القطب، يا سيد ويست».

فتحت دفتر المواعيد ثم اقترحت عليه موعداً، فأومأ موافقاً. ناولته بطاقة وضعها في جيبه، وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين: «إذن، أنت تعملين طوال أيام العيد، ألا يزعجك هذا؟».

ـ لقد اعتدت ذلك. فالأولوية في مثل هذه المناسبات هي للمتزوجات

اللواتي لديهن أولاد. عيد الميلاد جميل جداً في المستشفى، ويسعى الكثير من الموظفين إلى البقاء لأنهم يستمتعون به كثيراً. لا سيما أولئك الذين يعيشون وحدهم.

فقال بجفاء: «مثلك».

لم تتكلف لويزا عناء الرد، فأضاف: «ومثلي».

ألقت عليه نظرة سريعة، وسألته: «أليس لديك أسرة تقضي العيد معها؟».

ـ دعتني شقيقتي، ولكن عليّ أن أكون أهلاً لقضاء بضعة أيام مع طفليها. إنهما إرهابيان في البيت، إذ يتلفان كل ما يلمسانه. وهما بحاجة إلى التسلية والاهتمام طوال الوقت. فهما لا يحبان الخروج للعب وإن لم يجلسا أمام التلفزيون أو الفيديو، فيلهوان بالألعاب الإلكترونية اللعينة أو يستمعان إلى موسيقى الروك. الحياة في ذلك المنزل الكبير هي جهنم بعينها عندما يعود الولدان من المدرسة.

ـ أين يعيشون؟

ـ في «بروفنس».

بدت الدهشة، فقد توقعت أن يقول لندن أو أي مكان آخر قريب.

ـ في فرنسا؟

فرد ساخراً: «هذا ما لاحظته حين نظرت إلى الخريطة آخر مرة».

فقالت وهي شاردة، تحلم: «يا لهم من محظوظين. مهما بلغت شقاوة ابني شقيقتك، لسافرت من دون تردد. أتمنى لو يعرض عليّ أحد ما رحلة إلى «بروفنس»».

ـ لا بأس إذن. سأذهب إذا رافقتني.

حبست أنفاسها. وألقت عليه نظرة مذهولة، غير مصدقة. ثم قررت عدم أخذ كلامه على محمل الجد، فضحكت قائلة: «هذا مضحك».

ـ أنا لا أمزح.

فأشاحت بوجهها بضيق واضطراب: «آسفة يا سيد ويست. لا وقت لديّ أضيّعه على ألاعيبك، فالمرضى بحاجة إليّ».

وكان القسم قد ازدحم مجدداً، بعد وصول حالات جديدة. اهتمت موظفة الاستقبال وممرضة شابة بالمرضى وطلبتا منهم الجلوس حتى تعاينهم الطبيبة أو الأخت جيلبي.

لم يكن مستشفى وينبري واسعاً، كما لا يزدحم فيه المرضى غالباً. فالمدينة صغيرة جداً، والمنطقة ريفية. ولا يمكن مقارنة قسم الطوارىء فيه بأقسام طوارىء مستشفيات المدن الكبرى. وكانت لويزا تحمد الله على أنها تعمل في هذه المنطقة رغم أنها أرادت، في أحد الأيام، أن تعمل في لندن لسنة أو اثنتين، لاكتساب مزيد من الخبرة.

عندما سارت نحو مكتب الاستقبال، سمعت خطوات زاكاري ويست، وهو يتجه نحو المخرج. ثم سمعته يطلب من البواب إحضار سيارة أجرة له.

فكرت في أنه لا يستطيع قيادة سيارته بسبب يده المصابة. ولم يغب عن تفكيرها، وهي تسأل عن المرضى الجدد فتناولها الممرضة رزمة صغيرة من البطاقات. تفحصت البطاقات، مدركة أن زاكاري ينتظر قرب الباب الرئيسي. لكنها حدثت نفسها باستياء بضرورة تركيز تفكيرها على عملها، ونسيانه. وبالرغم من أنها لم تلتفت نحوه من جديد، إلا أنها علمت حين جاءت سيارة الأجرة، وحملته بعيداً. فتملكها عند ذلك شعور غريب هو مزيج من الارتياح والأسف. أنهت عملها وتهيأت للخروج، وقد انتابها شعور أشبه بالموت، فبادرتها أنديرا كومار، السؤال: «كيف كان نهارك في قسم الطوارىء؟».

ـ إني منهكة. لقد بقيت على أهبة الاستعداد طوال اليوم تقريباً.

فردت أنديرا ضاحكة: «يبدو أنك مرتاحة جداً في قسم الحروق».

ـ يمكنني، على أي حال، أن أستريح أكثر من هنا.

ـ ليس لدينا الوقت للجلوس طويلاً هنا. فهذه هي طبيعة العمل. ولكنك كنت ذات كفاءة عالية، يا لويزا. ويمكنني العمل معك طوال الوقت. إذا فكرت في العودة، فسأتلقاك بذراعين مفتوحتين.

فضحكت لويزا لكنها هزت رأسها: «آسفة يا أنديرا، لكنني أحب مكان عملي. العمل شاق، لكنه يستحق الجهد المبذول. أشعر هناك بأنني أؤدي عملاً ذا قيمة حقاً».

وتنهدت أنديرا برزانة: «نعم، طبعاً، إنني أتفهم هذا، للأسف. حسناً، استمتعي بإجازتك. هل سترين دايڤيد أثناءها؟».

ـ لا، فقد ذهب إلى «ويلز» ليمضي العيد مع والديه.

ـ ألم يطلب منك مرافقته؟

نظرت إليها أنديرا ثم عبست مضيفة: «آسفة، هل كان سؤالي متطفلاً؟ ظننت فقط... بما أنك تخرجين مع دايڤيد منذ أشهر، ظننت أن ذلك... حسناً، ظننت الأمر جاداً. أو أنه يعتبره من الجدية بحيث يدعوك لقضاء العيد معه».

ردت لويزا، وقد احمر وجهها قليلاً: «لم نحسم أمرنا بعد».

في الواقع، اقترح دايڤيد عليها قضاء العيد في «ويلز» مع أسرته، ولكن اقتراحه جاء حين كانت تتوقع قضاء العيد مع أسرتها. وعندما أعلمها أبوها أنه سيسافر مع زوجته إلى سويسرا لم تطلع دايڤيد على الأمر لئلا يكرر دعوته. فهي لم تشأ مرافقته والتعرف إلى أسرته، كي لا تجر إلى التزام أقوى.

كانت تراه غالباً، لكن علاقتهما لم تتوطد خلال الأشهر الأخيرة. فهما مشغولان دائماً... كما كانت تعلم أن صبر دايڤيد قد نفد، وأنه

يريد لعلاقتهما أن تصبح وطيدة وحميمة أكثر مما هي عليه.

ذاك المساء، وفيما كانت تعد عشاءها، راحت تفكر في أحداث اليوم. وتذكرت كيف خفق قلبها حين رأت زاكاري ويست.

هذا هو أول رجل تميل إليه بهذا الشكل. الآن فهمت ما يشعر به دايڤيد عندما يأخذها بين ذراعيه. أترى العواطف المحمومة متشابهة دائماً؟ وأدركت أن دايڤيد لن يسرّ إذا ما أخبرته أن زاكاري ويست يشعل في كيانها النار بمجرد أن يرمقها بنظرة، فيما يعجز هو عن ذلك رغم كل جهوده.

عضت على شفتها وهي تسكب طعامها الساخن في طبق. فهي تدرك جيداً أن زاكاري ويست يلهو بها. عليها أن تكفّ عن التفكير به.

في اليوم التالي، كان الطقس جميلاً، فشعرت لويزا بالتململ، وخرجت تتنزه بسيارتها. اتجهت إلى خارج المدينة، وقصدت البحر، بحثاً عن مكان مناسب تتناول فيه غداءها. كانت تعرف فنادق عدة جميلة، تقدّم أطباقاً خفيفة وشهية. إلا أنها قصدت قرية «تريتون» فوجدتها هادئة ساكنة، وطرقاتها خالية تماماً.

وعندما لاح أمامها بيت زاكاري ويست، اعترفت لنفسها أنه هدفها ومبتغاها.

حتى إنها أعدّت مسبقاً عذراً تقدمه له. لكن حين فتح باب الكوخ وواجهها، نضبت الكلمات في حلقها.

رفع حاجبيه ساخراً، وقال: «مرحباً من جديد. هل غيرت رأيك بالنسبة للرحلة إلى جنوب فرنسا؟».

* * *

٦ ـ الحب كالأرجوحة

ثارت ثائرة لويزا وهي تشعر بالإحمرار يعلو وجهها. لِمَ يحمر وجهها كلما رأته؟ لا عجب في أنه يسخر منها باستمرار.

ـ جئت لأرى إن كنت بحاجة إلى المساعدة في أعمال البيت، فلا تضطر لاستعمال يدك المصابة.

أمعن النظر فيها بسخرية: «هل تعملين في مؤسسة خيرية بالإضافة إلى التمريض؟».

ـ طبعاً لا. ولكن، بما أني كنت مارة من هنا...

وتلاشى صوتها وهي تنظر إلى داخل الكوخ حيث عمّت الفوضى. فالكتب متناثرة على الأرض، والأدراج مفتوحة وقد بُعثرت محتوياتها. تمتمت بذعر: «يا إلهي... ماذا كنت تفعل؟ هل تنتقل من بيتك؟».

فالبيت كان مرتباً عندما زارته قبل العيد. لكنه فنان، ولعله، لهذا السبب، يحب العيش وسط الفوضى.

أجاب مكشراً: «لا، عندما عدت من المستشفى في الأمس، اكتشفت أن لصوصاً سطوا على بيتي».

ـ سطوا على بيتك؟ آه، لا! هذا فظيع. هل سرقوا أشياء ثمينة؟

ـ التلفزيون وجهاز الفيديو، ومعدات الستيريو، وفرن «الميكروويف». أي كل ما يمكنهم بيعه بسهولة.

ـ هل حضرت الشرطة؟

ـ جاء رجال الشرطة منذ نصف ساعة فقط، ولم يمكثوا طويلاً. قالوا إن عدد الموظفين لديهم قليل بسبب إجازة العيد. وبيتي ليس البيت الوحيد الذي تعرض للسطو أثناء الإجازة. فالاتصالات التليفونية تنهال عليهم بشكل متواصل. لم يجدوا بصمات أصابع أو أي آثار أخرى على حد علمي. كما لم يتركوا في نفسي انطباعاً بأنهم سيقبضون على أحد، أو أنهم سيعيدون لي أغراضي.

حدقت لويزا في غرفة الجلوس، وقالت: «هل تستخدم أحدهم لتنظيف البيت وترتيبه؟».

ـ هناك امرأة تخدمني إنما أخذت إجازة لتمضي العيد في فندق في «هاروغيت». وهكذا لا يمكنها أن تأتي لتنظيف البيت. كنت على وشك المباشرة بالعمل حين جئت أنت.

فاندفعت تقول: «سأساعدك».

وإذا ما توقعت منه اعتراضاً أو جدلاً، فقد خاب ظنها، فقد رد بهدوء: «رجوت فعلاً أن تعرضي عليّ هذا، وإذا انتهينا من العمل باكراً، سأصحبك لتناول الغداء في «بلاك سوان» في «تيرتون»، وهو أفضل مكان في المنطقة. ولكن عليك أن تقودي السيارة بنفسك لأنني عاجز عن ذلك، كما تعلمين».

خلعت لويزا سترتها الحمراء، وهي تقول: «إذا كان لديك طعام في البيت، يمكنني تحضير غداء خفيف لنا نحن الإثنين. والآن، هل هذه هي الغرفة الوحيدة التي تعرضت للتخريب؟».

ـ نعم، لقد صعدوا إلى الطابق العلوي. لكنهم وجدوا الأشياء التي يريدونها هنا. وربما أرادوا الهرب قبل عودتي، لهذا لم يضيعوا الوقت في تخريب الطابق العلوي. أعلمني رجال الشرطة أن الضرر الذي لحق ببيتي

www.elromancia.com

طفيف، مقارنة مع ما رأوه في أماكن أخرى.

لم تكن المهمة سهلة، كما أن لويزا كانت متعبة بعض الشيء. لكنها اعتادت العمل الشاق، وهي، من العناد، بحيث تحرص على إنهاء كل ما تباشره. وهكذا بقيت تعمل إلى أن عاد البيت إلى ما كان عليه. وبالرغم من تعبها، لاحظت، بعد حين، شحوب وجه زاكاري. فأمرته بالجلوس وبترك العمل لها.

اعترض قائلاً: «أنا بأحسن حال».

ـ لا. هذا غير صحيح. اجلس ولا تكن عنيداً. ما الفائدة التي ستجنيها إن مرضت مجدداً؟

فنظر إليها لاوياً فمه: «أنا لا أحب المرأة المتسلطة!».

ردت عليه بحدة: «لم أطلب منك أن تحبني».

لكنها شعرت وهي تتلفظ بهذه الكلمات، بنصل سكين حاد يغرز في أحشائها. ثم أضافت: «كل ما أريده هو أن تحكّم عقلك وتجلس، قبل أن تسقط أرضاً».

ـ آه، حسناً.

هز كتفيه وسار نحو الكرسي ببطء. تابعت عملها راضية بينما أخذ يراقبها لبعض الوقت، ثم توجه إلى المطبخ. ودهشت حين عاد بإبريق قهوة وطبق يحتوي على شطائر.

ـ لقد أقفل المقهى لتوه، لهذا لن نتمكن من الخروج لتناول الغداء. ولم أجد سوى الشطائر... فماذا تفضّلين؟ جبناً أم سلطة؟

فأجابت وهي مركزة على عملها: «لا بأس بأيّ منهما».

ـ توقفي عن العمل واغسلي يديك وتعالي لنأكل.

وضعت أصبعها على خدش عميق تركه اللصوص على سطح منضدة، وقالت آسفة: «ما الذي يدفع الناس إلى الإقدام على مثل هذه الأفعال

الشنيعة السيئة؟ فهذه المنضدة أتلفت وأصبحت تبدو قديمة».

ـ إنها من أواخر العهد الجيورجي.

قطب جبينه، مما جعل وجهه يبدو متوعداً، يدفع من يراه إلى الهرب مذعوراً. وأضاف بشيء من خيبة الأمل: «ليست ثمينة جداً، لكنها ملك أسرتنا منذ العام ١٨٢٠، لذا لا أريد أن أخسرها. أعرف شخصاً يجدد قطع الأثاث القديم، وسأتصل به».

ألقت لويزا نظرة من حولها وعلّقت: «أظنني أنهيت العمل كله».

ـ نعم، اذهبي واغسلي يديك. الحمام في الطابق العلوي إلى اليسار.

ركضت إلى أعلى فوجدت الحمام على الفور. كان جيلاً يطغى عليه اللون الأصفر، لمست إحدى المناشف السميكة الصفراء متسائلة عمن اختار قطع الحمام. ثم وجدت لوحاً من الصابون برائحة الليمون قرب الحوض، فتملكها الغرور. هل وضعه خصيصاً لأجلها، أم إنها مجرد صدفة؟

عندما عادت إلى غرفة الجلوس، وجدت زاكاري قد وضع كوبي القهوة والصحون على منضدة قرب النافذة.

دخلت فراح يسكب القهوة. وفجأة، أدركت لويزا مدى إحساسها بالجوع. فأخذت تشتم الرائحة الشهية وهي تبتلع ريقها.

قال لها وهو يضع في أحد الأطباق نصف شطائر الجبن، ويدفعه إليها: «اجلسي وكلي».

نظرت إلى الخبز، وهي تقول مازحة: «هل تأكل غالباً الشطائر؟».

ـ عندما أعمل فقط. لا يمكنني إضاعة الوقت في الطهي أو الأكل في المطاعم. فأنا أقصده عندما لا أكون مشغولاً.

سألته، وهي تقضم الشطيرة المحشوة بالجبن وصلصة البندورة الحرّة: «هل تعمل كل يوم؟».

ساد الصمت. رفعت بصرها إليه فرأت وجهه قد اصطبغ بحمرة داكنة، وتوترت ملامحه. ما الذي أزعجه؟ إنه رجل حساس للغاية بسبب الظروف السيئة التي عاشها مؤخراً. فمن الحادث، إلى آثار الحروق الجسدية والنفسية وأخيراً سرقة بيته... لذا فمن الطبيعي أن يكون سهل الانفعال.

تمتم أخيراً: «اعتدت ذلك».

أحست بشيء من الكآبة المتوارية خلف كلماته، فاعتصر قلبها ألماً من أجله.

ـ أما زلت عاجزاً عن العمل بشكل طبيعي؟

فحملق فيها باستياء: «أخبرتك عندما جئت في المرة الماضية، أنه لم يعد بإمكاني الرسم منذ الحادثة. نعم، أنا لست معوقاً جسدياً. وأستطيع أن أرسم إذا أردت ذلك... إنه الحافز إلى ذلك الذي مات. أنا عاجز عن اتخاذ قرار حول ما أريد أن أرسم. فأقف أمام اللوحة لساعات أحدق فيها، محاولاً أن أقرر، ولكن...».

سكت فجأة عابساً، فنظرت إليه بعينين متعاطفتين وقالت: «آسفة لأجلك. لا بد أن هذا يؤلمك...».

فما كان منه إلا أن زمجر، وهو يرمقها بعينين فضيتين ثائرتين: «يا إلهي!».

اضطربت وسقطت من يدها شطيرة كانت تأكلها. فيما أخذ يكرر كلمتها بلهجة مرّة لاذعة: «ألم يعجبك من بين الكلمات المتعاطفة اللبقة غير كلمة مؤلم؟ مؤلم؟».

وصرخ مكشراً عن أسنانه: «إن الأمر يدفعني إلى الجنون، يا امرأة. فأنا رسام... أنا بحاجة إلى الرسم ولا أدري لم لا أستطيع ذلك. أجرّب دوماً، وكلما حاولت، كلما منيت بفشل ذريع».

بللت شفتيها الجافتين وتمتمت متسائلة: «ربما عليك أن تكف عن المحاولة وتترك الأمر أسبوعاً أو نحوه؟».

ـ أتظنين أني لم أفعل؟ جربت كل ما خطر في بالي ولكن من دون جدوى.

ونظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر وأكمل: «هيا، أنهي طعامك، واشربي تلك القهوة قبل أن تبرد».

أطاعته صاغرة آملة أن تهدأ أعصابه.

وبعد دقائق سألها: «هل انتهيت؟».

ـ نعم، شكراً. كانت الشطائر لذيذة.

فوقف قائلاً: «تعالي معي!».

نهضت وهي تسأله حائرة: «إلى أين؟».

ـ إلى محترفي.

ابتعد بخطوات واسعة فتبعته وقد أثار فضولها. لم ترَ محترفاً من قبل، وهي تتحرق شوقاً لتكتشف المجهول.

كان المحترف بناءً ملحقاً بالكوخ. يتميز بواجهات زجاجية تمتد من الأرض إلى السقف، وتجعله مضيئاً حتى في أيام الشتاء المظلمة.

توسط الغرفة ركيزة شدّت عليها قماشة، فأشار زاكاري إليها قائلاً بلهجة حاسمة: «هذا كل العمل الذي قمت به في الأشهر التسعة الأخيرة».

حدقت بارتباك في الخطوط التي خلّفتها الفرشاة الحمراء الغاضبة ثم قالت بأدب: «لا أعرف الكثير عن الفن الحديث».

ـ هذا ليس فناً، أيتها الحمقاء! دفعني القنوط، ذاك اليوم، إلى تشطيب القماشة بالدهان الأحمر بعنف وغضب كي أعبر عما يتملكني.

فتمتمت لويزا بتعاسة: «فهمت... أنا آسـ...».

www.elromancia.com

ـ لا تقولي (آسفة) مرة أخرى وإلا ضربتك!

تراجعت خائفة نحو الواجهة الزجاجية، وسألت: «وماذا أقول غير هذا؟».

سطعت الشمس فجأة ولفّ نورها جسمها الرشيق في الثوب الأزرق الذي ترتديه. فضاقت عينا زاكاري، وقال فجأة: «لا تتحركي».

سألته بدهشة، والحيرة في عينيها: «لماذا؟».

سارع زاكاري إلى التقاط دفتر التخطيط والقلم من على مكتبه.

أخذت تراقب يده غير المصابة وهي تخطّ بسرعة، فتبرز الخطوط السوداء على الورق الأبيض.

سألته مسرورة: «هل ترسمني؟».

ـ وماذ تظنينني أفعل؟

تجاهلت سخريته لفرط ما شعرت بالزهو. ها هو يبدأ بالرسم أخيراً، وهي التي ألهمته! وغمرها السرور لذلك.

رمى القلم بعد لحظات ونظر إلى التخطيط، لاوياً شفتيه، مستاءً.

ـ هل يمكنني رؤيتها؟

ناولها الدفتر، من دون أن ينبس ببنت شفة. أخذت تحدّق في الخطوط السريعة التي تشبهها.

ـ هذا رائع! إنك موهوب جداً، يا سيد ويست. أنا أحسدك، فأنا لا أملك أي موهبة فنية.

فقال بعفوية: «أنت ممرضة ممتازة... وهذه نعمة لا بأس بها!».

علت الحمرة وجهها وردت: «شكراً، لكن الأمر ليس سيّان فهناك الألوف من الممرضات الكفوءات، ولكن الفنانين الموهوبين قلائل. متى ستنقل هذه الخطوط إلى القماشة؟».

نظر إليها وهو يبتسم ساخراً: «ماذا؟! إن القدرة على التخطيط هي

عملية انعكاس، إنها مجرد وضع الخطوط العريضة لما أراه أمامي. وهذا لا يتطلب سوى دقائق. أما الرسم فمختلف جداً... فهو يستغرق ساعات طويلة، ويتطلب الكثير من العمل... وقد يتطلب أسابيع، وشهوراً... وهو، قبل أي شيء، بحاجة إلى الإلهام. أنا بحاجة لأن أعلم بالضبط ما أريده... وهذا ما فقدته طوال الأشهر الماضية... الحافز إلى الإبداع».

فعضت شفتها: «آه... فهمت».

شعرت بالمذلة والحماقة، لعله يعتبرها فتاة تافهة. ولا شك أنه يزدريها إذ ظنت أنها ألهمته.

ألقى بالدفتر جانباً ووقف قربها عند النافذة.

ـ ما رأيك بحديقتي؟ لقد صممتها بنفسي. ليست في أحسن حالاتها الآن، فشهر كانون الأول هو أسوأ شهور السنة بالنسبة للنبات. لكنني زرعت فيها الكثير من الشجيرات... التي تحمي من الرياح البحرية. ويمكنك أن تري الآن براعم خضراء عليها، كما أن الزعفران والنرجس الأصفر بدأ في الظهور.

التفتت تحدق في الخارج: «إنك بستاني جيد».

ـ أجد البستنة طريقة لطيفة لقضاء الوقت. انظري إلى شجرة «الماغنوليا» هناك. إنها زهرتي المفضلة... وسرعان ما ترين زهورها تغطيها كالنجوم البيضاء.

شعرت بكتفه تلامس كتفها فأخذ قلبها يخفق بعنف. نظرت إلى المكان الذي أشار إليه فرأت شجرة صغيرة دون أوراق لكنها مغطاة ببراعم بيضاء. لاحظت كل ذلك بعينين غائمتين، إذ شغلها الرجل الواقف بجانبها ومنعها من التركيز على أي شيء آخر.

أخافتها مشاعرها، فابتعدت عن النافذة بسرعة في الوقت الذي تحرك هو فيه، فإذا بهما يصطدمان ببعضهما. مدت يديها غريزياً، لتقي نفسها

من السقوط، فعلقت أصابعها بكنزته الصوفية.

قالت له متلعثمة: «آسفة».

وحوّلت نظراتها عنه راجية ألا يرى على وجهها الاضطراب الذي تملكها حين لمسها.

كان وجهه المشوّه بآثار الجروح متوتراً بينما بدت السخرية في عينيه الفضيتين، وهو يقول ببطء: «عليك أن تكوني أكثر حذراً، ثم لا ترتجفي هكذا! فقد أسيء فهم اضطرابك، وأعتبره دعوة لي. لقد كرهت عناقي من قبل. بل وجدته، في الواقع، كريهاً إلى حد أغمي فيه عليك. وأنت لا تودين حدوث ذلك الشيء مجدداً، أليس كذلك؟».

تملكها الذعر حين سمعت أقواله، وطريقة كلامه. هل يظن حقاً أنه أغمي عليها لمجرد أنه عانقها؟

شرعت تقول: «أنا لم أجدك...».

ثم عادت فسكتت، عاجزة عن صياغة أفكارها دون أن يبدو الأمر كدعوة له.

تلعثمت وهي تقول: «أعني... أن ذلك لم يكن سبب... آه، لا تظن...».

وبدت التعاسة في عينيها ثم امتلأتا عطفاً وهي تنظر إليه: «يجب ألا تظن أنك لم تعد جذاباً...».

فرد ساخراً وهو يضحك بخشونة: «أحقاً؟ في هذه الحالة...».

وضع ذراعيه حول خصرها وراح يقترب منها. خفق قلبها بعنف وهي تشعر بلمسة يديه.

أخذت ترتجف بعنف، خائفة من تجاوبها الذي عجزت عن السيطرة عليه. شعرت وكأنها مستلقية على شاطىء البحر، والمدّ يغطيها دون سابق إنذار، ويجرفها بعيداً دون أن تتمكن من مقاومته، ليغرقها بين أمواج عاتية

هائجة، عجزت عن التغلب عليها.

أغمضت عينيها عن العالم حولها... الغرفة الهادئة، الحديقة خلف النافذة، الأشياء العادية التي قد تحذرها من حماقة الاستسلام لمشاعرها، وتعيدها من دوامة المشاعر التي جرّتها إليها. كل ما يجري يتعارض وتعقلها، لكن لويزا رفضت الإصغاء لصوت العقل.

هذه هي اللحظة التي لطالما انتظرتها وتمنتها، لتعيش السعادة التي لم تعرفها إلا في الأحلام. وعندما عانقها، تنهدت راضية وطوقته بذراعيها مستسلمة.

جذبها نحوه أكثر فأكثر. فتسارع نبضها بجنون، وأحست بالنار تلتهم كيانها.

أخذت الشكوك تساورها، والأسئلة تتصارع في عقلها، أتراه يحبها هي حقاً؟ أم أن تصرفه هذا ناتج عن انقطاعه عن النساء لمدة طويلة؟

لكنها رفضت بغضب الإصغاء لهذا الصوت الهامس.

كانت تعتقد أن المشاعر التي تخالجها حياله سببها آلامه وعطفها عليه بعد معاناته الطويلة. فهي تعطف دوماً على الذين يعانون مثل تلك الآلام. وحاولت أن تقنع نفسها بأن شعورها نحو زاكاري ويست طبيعي، وهو شعور الممرضة نحو مرضاها. وقد امتزج، هذه المرة، بشعورها بالذنب لعلمها أن أباها سبّب الحادث.

لكنها كانت تكذب على نفسها. اضطرت إلى الاعتراف بذلك تدريجياً، فمشاعرها هذه لا يمكن أن تكون وليدة عطفها على زاكاري. فجذورها مدفونة في أعماقها.

لطالما تساءلت عما إذا كانت باردة المشاعر، ولا تستطيع الإحساس بالحب الذي يكتب عنه الشعراء، وتصدح به الأغاني. لكن زاكاري ويست أثبت لها العكس.

www.elromancia.com

تأوهت وهي تمرر أصابعها في شعره. وكأنما صوت آهتها هذه أبطل السحر الذي لفهما، فتصلب جسم زاكاري ولم يعد يحرك ساكناً. وبعد لحظة، رفع رأسه ووجهه المغطى بالندوب يتوهج حرارة.

لم تشأ أن تعود إلى الأرض من السماء التي حملها إليها. لكنها لم تستطع إبقاء عينيها مغمضتين إلى الأبد. وهكذا فتحتهما مكرهة وجسدها يرتعش لعنف المشاعر التي تملكتها، وغامرت بالنظر إلى زاكاري.

كان وجهه متوتراً شاحباً. تركها بحركة غاضبة، ثم تراجع إلى الخلف. وابتعد عنها، وهو يلهث وكأنه في سباق مع الموت أو الحياة.

ثم تمتم بصوت عميق أجش: «آسف. يا إلهي، لا تنظري إلي بهذا الشكل! أنت ترتجفين كأرنب وقع في شرك».

مد يده كأنه يريد أن يلمسها، ثم أسقطها مرة أخرى وأضاف: «لا بأس، لقد عاد إليّ رشدي. ولن يحدث هذا بعد الآن... ها أنت لا تستطيعين التوقف عن الارتجاف! أردت الوصول إلى نقطة ما وحسب... بدأ كل ذلك كمزحة غبية. ما كان علي أن أفعل هذا!».

وسكت مقطباً، وحوّل نظره، فيما أنهى كلامه قائلاً: «صدقيني، إن آخر ما أسعى إليه هو مضايقتك والإساءة إليك».

التهب وجه لويزا خجلاً، وتملكها الألم والخزي. وحدقت إلى الحديقة دون أن تراها.

مزحة؟ وشعرت بمذلة بالغة، هل هذا كل ما عناه له الأمر؟ مزحة؟

وسمعته يقول بصوت أجش منخفض: «خرج الأمر عن سيطرتي. أنت ممرضة، ولعلك درست القليل من علم النفس مما يجعلك تفهمين ما يدور في رأسي. كنت غاضباً حين عانقتك لأنك تشعرين بالأسى فقط حيالي. وهذا ما أغضبني. ولكن حين أوشكت على تركك، فكرت في شيء آخر... فتاة أخرى...».

جمدت لويزا وكأنها تمثال حجري. هل كان يفكر في فتاة أخرى وهو يعانقها؟ واغرورقت عيناها بالدموع من فرط إحساسها بالمهانة. فيما تابع كلامه بصوت أبح: «لهذا السبب فقدت السيطرة على نفسي. إنه جنون حقاً. من الغباء أن أستمر في التفكير بذلك... بها...».

حاولت لويزا أن تغالب دموعها. لكنها، في الوقت نفسه، ركزت على أقواله... إنه يفكر فيها... فيها... من تراها تكون؟

وتمتم قائلاً: «حتى أنها ليست حقيقة، فأنا لا أعرفها على الإطلاق. كما لا أعرف اسمها، ولا أين تسكن، ولا أي شيء عنها! لقد رأيتها مرة واحدة، ومن بعيد، ولكن...».

تأوه من أعماق قلبه وأكمل: «لكنها أضحت هاجساً أعيشه. هل يمكنك أن تفهمي هذا؟».

فهمت والألم يعتصر فؤادها: «نعم. نعم يمكنني فهم ذلك».

كانت تفهم مشاعره، أكثر مما يتصور. فمنذ وقعت عيناها عليه لأول مرة، أصبحت صورته هاجسها. وازداد هوسها به يوماً بعد يوم.

نظر إليها بارتياب: «هل يمكنك حقاً؟ ليتني أنا أفهم! لو قال لي أحدهم، يوماً، إن هذه المشاعر ستخالجني إزاء امرأة لا أعرفها، لسخرت منه. إنه نوع من المرض، ولكنني لا أستطيع الشفاء منه. أعلم أن كل هذا في عقلي فقط، وهو مجرد سراب. رددت هذا لنفسي مراراً... وكررت أن الوقوع في غرام فتاة لم أكلمها في حياتي مستحيل... وأن هذا جنون... ثم، ما الذي أعرفه عنها؟».

واستدار مبتعداً متململاً... ثم عاد نحوها، ليبتعد مجدداً، واضعاً يديه في جيبي بنطلونه.

أخذت لويزا تنظر إليه وهي تعض على باطن شفتها كي تمنع نفسها من الصراخ وفضح مشاعرها.

ضحك بقساوة، وأكمل: «قلت لنفسي إنها قد تكون أثقل نساء الأرض ظلاً، أو امرأة لعوباً، أو عديمة الإحساس! وقد تكون متزوجة وأم لولدين! فكرت في كل الاحتمالات التي قد تجعلني أنساها. لكنني عاجز عن ذلك. فهي تراود أحلامي كل ليلة، لذا أستيقظ وأنا أفكر فيها».

لم تختبر لويزا يوماً هذا الألم الذي اجتاحها. هذه العاطفة المحمومة في صوته، والقلق القاتل البادي على وجهه الشاحب، وعدم استقراره. كل هذا جعلها تشعر بالغيرة، بحيث كادت تصرخ. بينما كرر كلامه.

ـ لم أرها سوى مرة واحدة... ما أغرب ذلك...

ثم وقف واستدار نحوها. وأخذ ينظر إليها بعينين تصف مغمضتين، وكرر قوله ببطء: «من الغريب أن هذا كله حدث ذلك المساء... أتظنينها مصادفة، أم أن هذا ما جعلني لا أنساها؟».

وبشكل ما، استطاعت لويزا أن تتكلم، فقالت بصوت منخفض متردد: «أي مساء؟».

تلاقت عيونهما، وعرفت الجواب قبل أن يتكلم، فهمست: «ليلة وقوع الحادث؟».

فأومأ بالإيجاب.

تنفست بحذر، والاضطراب يشوش ذهنها. وحاولت جاهدة تفهم ما يقوله.

ـ كنت في مكان ما بين قرية «تبرتون» ومدينة «وينبري»، أقود سيارتي بحذر لأنني كنت أخاف على لوحاتي المحمّلة فيها. كنت أفكر في المعرض، كما أذكر. ومتحمساً للغاية... لأنه سيكون أهم معرض لي... كما كنت متوتراً، كما أظن. كان الوقت غروباً، وأنوار سيارتي مضاءة بسبب الضباب. كنت في منطقة ريفية، ورأيت أمامي، إلى اليمين... كان الضوء خفيفاً... رأيت بياضاً يسبح فوق سياج... أو ربما جدار؟ لا

أذكر تماماً، فاضطربت. لم أستطع أن أعرف ما هو ذلك. ضغطت على المكابح بشكل غريزي، وخففت من سرعة السيارة.

عما كان يتحدث؟ أخذت لويزا تتساءل وهي تحدق فيه بعينين زرقاوين حائرتين. وإذا تلاقت عيناه بعينيها، قطب جبينه، وأضاف: «أعرف أن كلامي يبدو كضرب من الجنون... لكنني ظننت... ظننت للحظة... أنه كان شبحاً».

ـ شبحاً؟

نظرت إليه غير مصدقة وعلقت: «لم أكن أعلم أنك ممن يؤمنون بالأشباح».

ـ أنا لا أؤمن بها، كما أن ما رأيته لم يكن شبحاً، طبعاً. لا بد أنك تعرفين تصورات المرء، خصوصاً عند الغروب، حين تصبح الأشياء رمادية فتبدو وكأنها تتلاشى في الليل. إنه وقت خدّاع جداً. فكانت ردة فعلي مبالغ فيها. بطبيعة الحال، سخرت من نفسي... لم أكن أعلم أني أتمتع بمثل هذه المخيّلة الخصبة. فما رأيته لم يكن سوى فتاة، فتاة تسير بجانب السياج. نعم سياج، تذكرته الآن. سياج تمتد خلفه حديقة كبيرة، وفي آخرها بيت كما أظن. لكنني لم أرَ سواها. بدت وكأنها هناك دوماً، تتحرك في شفق الغروب في تلك الحديقة. كانت ترتدي ثوباً أبيض... ثوباً فضفاضاً أشبه بقميص نوم ڤيكتوري الطراز...

اتسعت عينا لويزا من الدهشة وسألته: «قميص نوم؟ هل كانت تسير في الحديقة بقميص نوم؟».

فبدا وكأن صبره قد نفد، وكأنه يعتبرها غبية.

ـ لم أفترض أنه قميص نوم... وإنما يشبهه. هذا كل ما في الأمر... كان الأمر غريباً. وكأنني أحلم، أو كأن كل ذلك لم يحدث أبداً.

ونظر في عينيها ثم عبس بضيق: «لم أكن أتخيل!».

www.elromancia.com

ردّد ذلك بإصرار رغم أنها لم تنطق بكلمة. ولكن هذا ما خطر في بالها، طبعاً. فطريقته في وصف الأمر جعلتها تشك في أنه رأى الفتاة فعلياً، لكنها امتنعت عن طرح الأسئلة، وتركته يكمل حديثه.

ـ أنا واثق من أمر واحد. . . كانت فتية جداً.

بدت في عينيه نظرة حالمة. وتاهت نظراته وكأنه قادر على رؤية تلك الفتاة من جديد، في السماء الغائمة، في حديقته العارية.

أخذت لويزا تنظر إليه بمرارة. لم لا يرمقها هي بهذه النظرات؟ لِـمَ عليه أن يركز اهتمامه على فتاة لم يرها سوى مرة واحدة، فتاة قد تكون من نسج خياله؟

حتى أنه لم يلتفت إليها. لم يكن يشعر بما تفكر فيه وتحسه، ومشاعره تلفه بهذا الشكل.

ـ كانت متوسطة البنية، رشيقة. وشعرها الأسود الطويل الرائع يتطاير حولها عند أقل حركة. أما وجهها فهو ماثل أمامي الآن. . . كان كحجر كريم منقوش. . . حفرت عليه ملامحها بدقة متناهية. وجه بالغ الرقة، وعلى شيء من الشحوب. خففت من سرعة سيارتي إلى أن أوقفتها ثم رحت أحدق فيها. وبالرغم من أنها نظرت باتجاهي، إلا أنني لا أظنها تنبهت لي. أحسست أنها كانت مستغرقة في أفكارها كلياً.

يا لسخرية القدر! شعرت لويزا برغبة في الضحك بصوت عال. فالفتاة لم تلتفت إليه، لانشغالها عنه بأفكارها.

حسناً، أليس هذا مضحكاً؟ فالحب كالأرجوحة، ألوانه براقة، وأضواءه متألقة. أما العاشقين فيطارد أحدهما الآخر من دون توقّف ومن دون أن يدرك الواحد منهما محبوبه. كما أنهما يتعرضان لملاحقة شخص لم يتنبها له يوماً.

قال زاكاري مقطباً: «لسبب ما، ساورني إحساس بأنها ليست

سعيدة. . .».

سكت ثم نظر إلى لويزا، وهو يبتسم ابتسامة شاحبة: «آسف لأني لا أنفك أتكلم. لكنني لم أستطع التحدث عنها مع أحد طوال تلك الشهور. حتى أنني لم أجد فرصة لأفتش عنها. فبعد دقائق برز أبوك من عند المنعطف ليصطدم بي مباشرة. ومنذ ذاك الحين. . .».

وتصلبت ملامحه وشحبت ندوب وجهه وبانت المرارة في عينيه.

ـ لا أحتمل قيادة السيارة من جديد. لا بد أن أتغلب على ذكريات تلك المرحلة يوماً ما. لكنني مضطر، حالياً، إلى استدعاء سيارة أجرة لتنقلاتي، أو إلى طلب هذه الخدمة من أصدقائي. ولا يمكنني أن أطلب من أحد أصدقائي أن يطوف بي في الريف لأبحث عن فتاة أجهل اسمها. كما إنني لا أعرف أين رأيتها بالتحديد، كان ذلك في مكان ما بين تيرتون وويبري. لكن هذا يعني أميالاً عدة. ثم، حتى وإن وجدتها. . . حسناً، انظري إليّ! كيف يمكنني أن أطلب منها الخروج معي؟ ولِـمَ ستخرج فتاة بمثل جمالها مع رجل مثلي؟

ـ أنت لا تبدو بشعاً بقدر ما تتصور.

ـ لا تعودي إلى مثل هذا القول مجدداً. لا بأس، أنت خبيرة في الطب. . . فاعطني رأيك. هل أنا مجنون؟ أأعاني من تسلّط الوهم علي؟ أم ماذا؟

فابتسمت لويزا ابتسامة شاحبة، وردت: «آه، إنني واثقة من أنك رأيت فتاة تسير في الحديقة. ولا شك أنها جميلة كما رأيتها. . . لكن ما جعل ذكراها تحفر في عقلك هو الحادث الذي حصل بعد ذلك بسرعة. كنت مريضاً جداً، ولم يكن لديك ما تقوم به سوى الاستلقاء في السرير والتفكير. ستنساها عندما تعود إلى حالتك الطبيعية، وإلى عملك».

نظرت إلى ساعتها متعمدة، متظاهرة بالدهشة: «أنظر إلى الوقت!

عليّ أن أذهب، يا سيد ويست. أرجو أن تقبض الشرطة على اللصوص وأن تعيد لك أغراضك».

لحق بها إلى المدخل: «شكراً على مساعدتي في تنظيف المنزل... لولاك لعانيت طويلاً».

فقالت ببساطة: «لا بأس! وداعاً».

كان لهذه الكلمة في فمها طعماً مراً. قالتها بخفة ومرح، لكنها كانت تعنيها جادة، وآلمها أن تقولها.

توجهت نحو سيارتها وهي تتمتم: «وداعاً يا حبي».

وصاح زاكاري من خلفها: «إلى اللقاء».

فارتجفت. ستحاول ألا تعود أبداً.

***

٧ ـ الشجار.. اللقاء

عاد احتفال رأس السنة وعادت معه موجة أخرى من المرضى إلى المستشفى. حمدت لويزا الله على انشغالها، فلن تطيل التفكير في زاكاري فيما هي تتنقل مسرعة في أنحاء القسم. لكن محاولتها الجادة لنسيانه جعلتها حادة الطباع، وأخذ موظفوها ينظرون إليها بحذر كلما رأوها.

لاحظت لويزا تلك النظرة الحذرة في عيني أنيتا كارتر ذات مساء، عندما تقدمت نحوها، فعبست: لقد أصبحت «غولة»!

فكرت في ذلك، وتذكرت سنواتها الأولى في التمريض وخوفها من بعض الممرضات اللاتي يكبرنها سناً فسألتها بصوت أرقّ مما كانت مصممة عليه: «هل أعطيت الحقن للمرضى، يا «أنيتا»؟».

بدا على الممرضة الاضطراب: «كنت على وشك القيام بذلك، يا أخت جيلبي. كنت مشغولة...».

ـ حسناً، قومي بذلك الآن. واجعلي أمنيتك لهذه السنة الجديدة الالتزام بجدول العمل قدر الإمكان. وإن طرأ عليك أي جديد، يجب أن تواجهيه أيضاً.

فقالت «أنيتا» بخنوع: «نعم. وهل تمنيت أنت شيئاً للسنة الجديدة، يا أخت جيلبي؟».

فابتسمت لها لويزا بجفاء: «نعم، لكنني لا أتحدث قط عن أمنياتي إذ يحتمل ألا أحققها. أعطي الحقن الآن. ليس لديك وقت تضيعينه في

www.elromancia.com

الثرثرة، أليس كذلك؟ فأنت متأخرة في عملك».

أخذت تنظر إلى الفتاة التي احمر وجهها وهرولت مبتعدة كالفأر الهارب من القطة. مسكينة «أنيتا»... فهي تعيش في قلق دائم. ومن المؤسف أن تضطر لمضايقتها على الدوام، ولكن لا خيار أمامها. فالعمل ينبغي إنهاءه، وعليها أن تتعلم ذلك من دون أن تضطر لحثها في كل مرة.

عادت لويزا إلى مكتبها لإنجاز الأعمال المتراكمة، وقد بدا الأسى على وجهها. لم يكن لديها سوى أمنية واحدة في رأس السنة الجديدة، وهي أن تنسى زاكاري ويست.

أخذت تحدق في الورقة أمامها على المكتب، من دون أن تراها، وهي تفكر. دايفيد... ماذا سأفعل بالنسبة لدايفيد؟ هذا الرجل الرقيق الذي تستمتع بصحبته. ولكنها تعرف تمام المعرفة أنها لن تغرم به أبداً. لقد انتظرت الحب الحقيقي طويلاً، ولن تقبل بصديق يحل في المرتبة الثانية في قلبها، رغم ما تشعر به من مودة حياله.

انتظرت وانتظرت حتى أوشكت على الظن بأن لا وجود لما يسمى بالحب الحقيقي، ذاك الحب الذي يصفه الشعراء. ولطالما تساءلت عما إذا كانت ستعرف هذا الحب، الذي يدفعها إلى بذل النفس من أجل من تحب. لقد اتهمها بعض الرجال بالبرودة، وكادت أن تصدقهم.

لكن زاكاري بيّن لها أنها قادرة على الحب، وأن هذه المشاعر العميقة والجامحة يمكن أن تجتاحها. لهذا السبب أرادت ألا تخرج مع دايفيد مجدداً، فهي لن تعيش هذه المشاعر معه أبداً.

رن جرس التليفون فاضطربت. هل هو مريض جديد؟ لم يعد لديهم سوى سرير واحد خالٍ.

رفعت السماعة: «قسم الحروق. الأخت جيليي تتكلم».

كان أبوها. تنهدت بارتياح عندما سمعت صوته وردت: «مرحباً يا

أبي. كيف حالك؟».

أجاب باكتئاب: «لا تسألي».

لم ينفعه قضاء العيد في سويسرا كثيراً، فأعصابه أكثر توتراً مما كانت عليه. وأضاف: «كيف حالك أنت؟».

ـ مشغولة جداً، كالعادة بعد العيد ورأس السنة. ليس لدينا سوى سرير واحد خال الليلة. لا يمكنني أن أطيل الكلام، يا أبي، إذ علينا أن تنظم القسم للعمل الليلي.

ـ طبعاً. سأختصر إذن! مضى دهر لم أرك فيه. ما رأيك بتناول الغداء معاً قريباً؟ متى تحصلين على يوم عطلة؟

ـ أنا في عطلة ليومين بدءاً من الغد.

كانت تنوي النوم طوال اليوم، لأن النوم جافاها مؤخراً.

فقال أبوها: «ما رأيك بتناول الغداء يوم الجمعة إذن؟ لقد قدم لي عرض أريد أن أناقشه معك».

ـ عرض؟

ـ هناك من يريد شراء المصنع، وقد يكون في هذا مخرج لي. ولكن السعر المعروض منخفض جداً. أظنهم سمعوا عن الأزمة المالية التي أعانيها، وأرادوا أن يسبقوا غيرهم راجين الحصول على الصفقة. أريد رؤيتك للتحدث في الموضوع.

ـ أبي. أنا لا أعرف شيئاً عن الأعمال. ماذا عن نويل؟ ما رأيها؟

ـ لم أخبرها بعد.

تفاجأت وعلّقت: «آه، فهمت».

كم من الأسرار يخفي عن نويل؟ وما هذا الزواج الذي يخفي فيه مشاكله؟ يجب أن تكون زوجته موضع ثقته، فتواسيه وتخفف عنه عندما يغدر به الزمن، لا أن يخاف منها بهذا الشكل. قطبت لويزا جبينها، فتعاسة

أبيها انعكست عليها هي. راحت تستمع إليه وهي تعبث، من دون وعي، بمفكرتها اليومية الملقاة أمامها على المكتب.

قال أبوها: «أعلم ما ستقوله... فهي لا تريدني أن أبيع. لست بحاجة إلى سؤالها عن رأيها، فرأيها لن يكون محايداً. أما أنت، فليس لديك أي مصلحة شخصية. أنت ستصغين إليّ ثم تعطينني رأيك بإخلاص وتجرد... كما أني بحاجة إلى التحدث إلى شخص ما... ومن غيرك يمكنني الوثوق فيه؟».

ـ لا بأس، يا أبي. إلى اللقاء يوم الجمعة إذن؟ أين؟

ـ في المكان نفسه، في مطعم تشيريتري. فمع انتهاء موسم الأعياد، يمكننا الحجز بسهولة.

ـ نعم. سأراك هناك عند الثانية عشرة والنصف.

ثم وضعت السماعة.

سمعت لويزا صوت دايفيد خارج المكتب، فذهبت بسرعة لترى سبب وجوده هنا في مثل هذه الساعة، بينما عليه أن ينهي عملياته ويذهب إلى بيته ليرتاح.

كان يتبادل الحديث مع أنيتا كارتر، التي ما أن وقعت نظراتها عليها حتى ابتعدت بهدوء.

ابتسم دايفيد ابتسامة منهكة، وسألها: «هل لديك الوقت لاحتساء فنجان من الكاكاو الساخن؟ إن نسبة السكر في دمي منخفضة. كان يوماً مرهقاً».

قالت له وهي تحضر فنجان الكاكاو وتقدمه له مع قطع من البسكويت: «عليك أن تخلد إلى النوم وترتاح».

ـ الإرهاق البالغ يمنعني من النوم. وعلى أي حال، سأحصل على إجازة لبضعة أيام.. ابتداء من يوم الجمعة. أنت لا تعملين يوم الجمعة،

أليس كذلك؟ هل يمكننا تناول العشاء معاً؟ في مطعم تشيريتري؟

ترددت، فرمقها بنظرة عابسة غريبة: «أم أنك مشغولة؟».

لم تشأ الخروج معه. ولكن كيف يمكنها قطع علاقتها به هنا والآن؟ يجب أن تراه وحده بعيداً عن المستشفى.

ـ لا. سأذهب إلى «تشيريتري» لتناول الغداء...

فسألها بحدة: «مع من؟».

ـ مع أبي.

أزعجتها نبرة الغيرة في صوته، إذ لم يظهر أي منهما دليلاً على حدة مشاعره من قبل. والآن، وهي تفكر في إنهاء علاقتهما، لم يكن الوقت مناسباً ليغيّر دايفيد طباعه أو ليصعّب الأمور.

نظر إليها باتزان وهو يتكىء إلى ظهر كرسيه: «خفت أن يكون لي منافس. لو ارتبطت بأحد غير لأخبرتني، أليس كذلك؟ أكره أن أعرف ذلك من الناس».

ـ ما كنت لأعاملك بهذه الطريقة. فإذا تعرفت إلى شخص آخر، لأعلمتك أنت أولاً، قبل غيرك.

ـ ولكن ليس من المستغرب أن أشك بمشاعرك، فقد رفضت الارتباط بي جدياً.

احمر وجهها، وقالت: «دايفيد، الممرضة كارتر في غرفة الغسيل... فأخفض صوتك».

فتمتم بصوت خافت: «اللعنة على كارتر. علينا أن نتحدث بهذا الشأن، يا لويزا. لم أتوقع منك أن تقعي في غرامي من الموعد الأول. لكننا كنا نعلم إلى أين سيؤدي بنا هذا... خرجنا سوية طوال العام. وكما ترين، لا يمكننا متابعة الطريق بهذا الشكل. لا أريد أن أكون أخاك، بل أريد أن أكون أكثر من ذلك».

عضت على شفتها. كان يفرض عليها هذا الموقف، بالرغم من أنها ودّت لو يعفيها من الحديث أمام الجميع.

ـ دايفيد، أرجوك... هل يمكننا أن نتحدث في هذا الأمر مساء الجمعة؟

ـ أنت تتجنبين هذا الموضوع دائماً. أعتقد أنني ضيّعت وقتي معك، فنحن لن نصل إلى موقف معين. لا أظنك تهتمين لأمري مثقال ذرة!

تصلب جسمها، وشحب وجهها. همست: «آسفة يا دايفيد.. ما أردت يوماً أن أسيء إليك. من الأفضل أن نقطع علاقتنا».

نظر إليها بدهشة وقد توتر وجهه: «أتريدين قطع علاقتنا؟».

عجزت عن الكلام، فأومأت برأسها.

حدق دايفيد فيها وقد بدا التوتر جلياً على ملامحه. ثم وقف وخرج من المكتب بخطوات واسعة، وصفق باب القسم بعنف خلفه.

نامت لويزا في اليوم التالي، وطال نومها. أحست وكأنها مخدّرة رغم أنها لم تتناول سوى فنجان حليب عند عودتها من المستشفى. ولفرط تعبها، خلعت ثيابها ولبست قميص النوم، ثم استلقت على سريرها لتنام على الفور.

رأت أغرب حلم مرّ بها... كانت تسير في حديقة عند الغروب، فإذا بها ترى زاكاري يركض نحوها. خفق قلبها وغمرتها السعادة. لكن حين وصل إليها، وقف جامداً، يحدق فيها. ثم عبس وقال: «أنت لست هي! أنا لا أريدك!».

استدار مبتعداً بغضب وما لبث أن توارى، بينما وقفت مصعوقة والدموع تملأ عينيها.

استيقظت والظلام يلف المكان والذعر يغمرها. خلدت إلى النوم قرابة الساعة التاسعة والنصف صباحاً... ولم يخيل إليها أنها نامت طوال اليوم.

لكن عندما أضاءت المصباح قرب سريرها، ونظرت إلى الساعة، تبيّن لها أنها تجاوزت السابعة مساء. لقد نامت أكثر من تسع ساعات.

تركت فراشها وارتدت عباءتها. حضرت لنفسها فنجان قهوة شربته وهي تقرأ الجريدة، ثم دخلت الحمام لتغتسل وترتدي ثيابها.

كان الوقت متأخراً. فلن تتمكن من الخروج لتناول العشاء أو لمشاهدة فيلم كما تفعل أحياناً في إجازاتها. وهكذا راحت تطهو طعامها المفضل وهو «الريزوتو».

وفيما كانت تحضر الوجبة اللذيذة، رن جرس الهاتف. أطفأت النار ثم رفعت السماعة.

سمعت صوت دايفيد يقول: «آه، أنت في البيت. هل يمكنني الحضور؟ علينا أن نتحدث يا لويزا. لا يمكننا أن ندع الأمر ينتهي بيننا بهذا الشكل».

فتملكها الاضطراب، وردت: «دايفيد... هل يمكننا أن نتقابل غداً...؟».

ـ لا، بل الآن.

ثم وضع السماعة.

سيأتي إلى بيتها. عضت على شفتها وقد أزعجها الغضب في صوته. إنها لا تلومه على غضبه، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل إزاء مشاعرها؟ إنها تحمل له في قلبها المودة، ولكن هذا لا يكفي. وماذا يمكن أن تقول له سوى أن لا مستقبل لهما معاً؟ فهي لم تتعهد له بشيء على الإطلاق. بدأت علاقتهما بشكل عفوي وعملا على أن تتماشى وظروف حياتهما المهنية الصعبة، ولم يعبّر أيّ من الطرفين عن حرارة في عواطفه. لقد أراد دايفيد لعلاقتهما أن تتطور، ولكنه لم يبح لها يوماً بحبه، كما لم يسألها إن كانت تحبه.

توترت أعصابها حين علمت بقدومه. لا سيما أن مزاجه سيء، فغضب الرجال يقلقها ويخيفها.

عادت إلى المطبخ لتنهي تحضير طعامها، وإذا بالهاتف يرن مجدداً. ركضت هذه المرة لتجيب، راجية أن يكون دايفيد قد غيّر رأيه.

لكنه لم يكن هو بل سمعت صوتاً مألوفاً، يقول: «أنا زاكاري ويست».

خفق قلبها، وقالت بصوت خافت: «آه، مرحباً».

ـ اسمعي، لم أعثر على طبيبي... فهو خارج المستشفى لأمر طارىء... لكنني بحاجة إلى نصيحة... تملكني صداع فظيع طوال اليوم والأدوية المعتادة لم تنفعني. إنني أتساءل عما إذا كان لديك علاج أقوى، أم أكتفي بتناول قدر مضاعف من حبوبي المنوّمة وأحاول النوم حتى يزول الصداع؟

ـ لا. لا تفعل هذا.

صداع فظيع؟ طوال اليوم؟ والدواء المعتاد لم ينفع؟ هذا أمر مقلق. فقالت له:

ـ إذا كان ثمة شيء غير عادي، فيمكن أن يكون مؤشر خطورة. أظن من الأفضل أن أحضر وأعاينك. قد لا يسفر الفحص عن شيء، وقد يسفر عن شيء يجب أن يراه الطبيب. يجب التأكد من ذلك. سأكون عندك بعد نصف ساعة.

ـ هذا ما انتظرته منك وإلا لما اتصلت بك. آسف لإزعاجك، وشكراً على أي حال.

ـ لا بأس.

ابتسمت وقد امتلأ كيانها دفئاً، ثم وضعت السماعة.

كان طعامها قد حضر، فأفرغته في وعاء بلاستيكي وغطته بسرعة.

ستأخذه معها، ويمكنها أن تعيد تسخينه في منزل زاكاري إذا اضطرت لانتظار وصول الطبيب.

تزينت بسرعة، وصففت شعرها كالعادة، ثم ارتدت سترتها الحمراء وخرجت إلى سيارتها. عندما ابتعدت بها رأت سيارة دايفيد متجهة نحوها، فتجنبت النظر إليه، آملة ألا يرى سيارتها. ولكن عندما انعطفت بسيارتها رأته يلحق بها.

آه، كلا... إنه يتبعني! أخذت تفكر في ذلك وهي تعض على شفتها.

كان السير مزدحماً، ولم تجد فرصة للخلاص. واندفعت بسرعة أمام شاحنة، لكي تبتعد قبل أن تصل سيارة دايفيد إلى المنعطف.

وبعد لحظات، نظرت إلى الخلف، فلم ترَ أثراً له. وهكذا استرخت، ومضت تفكر في زاكاري وقد انتابها القلق.

ما سبب هذا القلق؟ لقد تعرض رأسه لإصابة أثناء الحادث، ولكنها لم تكن خطيرة، بحسب ما تتذكر. وهي لم تنس من حالة زاكاري سوى القليل القليل.

قد لا يكون لهذا الوجع علاقة بالحادث، وقد يكون نفسياً. فيبدو جلياً أنه متكدر لعدم تمكنه من الرسم. أترى هذه هي الطريقة التي واجه بها عقله الباطن ضغط محاولاته وفشله المتكرر؟

استغرق الوصول إلى الكوخ نصف ساعة. وكانت قد أحضرت معها حقيبة تحتوي على المعدات الطبية اللازمة كميزان الحرارة، وآلة ضغط الدم، وبعض الأدوية الأساسية، وفيما كانت تخرج الحقيبة من السيارة، سمعت صرير عجلات، فانتصبت ونظرت حولها بشيء من الحذر.

وللحظة ظنت أن دايفيد سيدهسها، لكن السيارة وقفت على بعد سنتيمترات من مؤخرة سيارتها.

خرج وصفق باب سيارته، ثم تقدم نحوها وقد أظلم وجهه من شدة

الغضب.
ـ لم خرجت فيما كنت تعلمين أنني قادم لرؤيتك؟ وأيّ لعبة شريرة تلعبين؟
شحب وجهها وقالت متلعثمة: «آسفة يا دايفيد، لقد تلقيت اتصالاً طارئاً».
ـ ماذا؟
نظر حوله إلى الكوخ النائي، والمناظر البعيدة وأضاف: «هنا؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».
عند ذلك فتح الباب الأمامي. وتصلب وجه دايفيد حين رأى زاكاري ويست واقفاً فيه.
ـ هذا... أنا أعرفه... كان أحد مرضاي... الفنان... ما اسمه؟
فردت بصوت أبح: «زاكاري ويست».
حدق دايفيد في زاكاري المتجه نحوهما، ثم استدار ببطء ينظر إليها؛ وقال: «ما الذي يجري هنا؟ هل اتصل وطلب منك القدوم؟».
ارتفع صوته وقد ازداد غضبه: «ولم يفعل ذلك؟ لم لا يتصل بطبيبه؟ وكيف حصل على رقم هاتفك؟ هل كنت تقابلينه بعد أن ترك قسمك؟».
بدا الشحوب على وجهها، وتلعثمت، فبدت مذنبة أكثر مما هي عليه في الحقيقة.
ـ حسناً... بشكل... بطريقة ما... ولكن...
وصل زاكاري، فتلاشى صوتها، ونظرت إليه راجية: «كنت فقط أفسّر له...».
سألها زاكاري وهو يرفع حاجبيه بغطرسة: «تفسرين ماذا؟».
فنظر إليه دايفيد بنفور عميق: «أنت... يا سيد ويست... كانت

تحاول أن تفسّر سبب حضورها إلى هنا، ولِمَ اتصلت بها هي وليس بطبيبك، ولم تكن مقنعة».
أخذ زاكاري يحدّق فيه هو أيضاً بنفور مشابه.
ـ لقد اتصلت بطبيبي، فأعلموني أنه خرج بسبب حالة طارئة.
ـ لم لم تنتظر إلى حين عودته؟ لم اتصلت بالأخت جيلبي؟
وراح دايفيد يتأمله، ثم قال بحدة: «وما هو هذا الأمر الطارىء؟ أنت لا تبدو لي بحاجة لمعاينة طارئة مستعجلة!».
فقال زاكاري بلطف: «كنت أعاني من صداع».
فثار دايفيد وقال: «صداع؟ تعاني من صداع؟».
بدا وكأنه عاجز عن الكلام بشكل مترابط، وقد احمر وجهه وارتجف جسمه غضباً.
ـ تعاني من صداع، لهذا اتصلت بها فاندفعت إليك ناسية أي شي آخر...
واستدار ببطء ونظر إلى لويزا التي تملكها الذعر فلم تستطع النطق بكلمة واحدة تهدئه بها أو تفهمه مقدار قلقها لصداع زاكاري. شعرت، ولسبب ما، أن عذرها لن يبدو صحيحاً إذا فحصه دايفيد بنفسه. فلم يكن يبدو على زاكاري أنه صريع الألم.
بعد سكوت طويل، قال دايفيد ببرودة: «حسناً، هذا يفسر كل شيء، أليس كذلك؟ لقد أدركت الحقيقة أخيراً. ومن المؤسف أنك لم تخبريني من قبل. لقد ضيعت كثيراً من الوقت في جهل ما يجري بيننا. لا بد أنك كنت تسخرين مني...».
فهتفت بتعاسة: «لا يا دايفيد، لقد فهمت الأمر خطأ. صدقني!».
ـ لا أظن ذلك.
ـ دايفيد، ما أردت إيلامك.

فأخذ ينظر في عينيها الزرقاوين الداكنتين القلقتين بصمت، ورد: «أنا أصدقك، وهذا ما لا يفعله معظم الرجال. فأنا أعرف قلبك الرقيق، يا لويزا. لكني تمنيت لو أنك أخبرتني الحقيقة».

ثم استدار مبتعداً. ركب سيارته وانطلق بها وهي واقفة، تنظر إليه وتلوم نفسها.

إنه على صواب. كان عليها إخباره بأنها تحب رجلاً سواه. ما كان عليها أن تدع علاقتهما تستمر شهوراً وهي تعلم أن لا مستقبل لهما معاً.

تمتم زاكاري مخترقاً الصمت: «أفهم من هذا أنه حبيبك».

فنظرت إليه باستياء بالغ، وسألته بغضب: «هلاّ فسرت لي كيف شفيت نفسك من ذاك الصداع المستعصي، يا سيد ويست».

نظر إليها وابتسم ابتسامة مخادعة: «يبدو أنه زال».

فهتفت بصوت ثاقب وقد توهج وجهها: «زال؟».

ـ نعم. وهذا غريب، أليس كذلك؟ منذ لحظة، كادت شدة الألم تعميني. وإذا بي أسمع صوت سيارتك، ففتحت الباب، ورأيتك تتشاجرين مع ذاك الرجل. لم أكن أعرف ما يجري... ظننت في البدء أنه صدمك بسيارته... أو شيء من هذا القبيل. خرجت لأساندك، فأدركت أنكما تعرفان بعضكما البعض، وأن الأمر شخصي أكثر مما ظننت. نظر إليّ وكأنني حشرة أزعجته. وكنت أنت تتلعثمين في الكلام وكأنك تلميذة، وتقدمين أعذاراً لتبرري قدومك.

ردت عليه بغضب: «حضورك لم يسهّل الأمور، أليس كذلك؟ كان بإمكانك على الأقل أن تذكر له أنك اتصلت بي لإحساسك بالمرض الشديد».

فقال محتجاً: «حاولت، لكنه أسكتني وأخذ يصرخ بك. على أي حال...».

وارتسمت على وجهه ضحكة ساحرة، وأكمل: «كان صداعي قد زال تقريباً، فشعرت أنه لن يصدق أي كلمة سأقولها».

لم تستطع لويزا أن تنكر أنه محق، لأن دايفيد كان سيعتبره كاذباً، إذ لم يبدُ عليه المرض الشديد. فوجهه متورد، وعيناه متألقتين.

فردت ببرودة: «أنا نفسي أرى ذلك صعب التصديق. الشفاء بمعجزة أمر لا يُصدّق بسهولة، يا سيد ويست».

تلاشت ابتسامته وتوترت ملامحه، ثم حدق فيها بإمعان. وأصرّ قائلاً: «إنه صحيح على أي حال. لا أدري لم زال صداعي فجأة، ولكن هذا ما حصل. ربما كان التوتر الذي تملكني عندما وجدت نفسي وسط شجار عنيف، هو الدواء لدائي».

شهقت، وشعرت برغبة في ضربه: «آه... ما رأيك بشجار آخر، إذن؟ أشعر برغبة في التشاجر معك».

رمقها بطرف عينه، وقال لها ممازحاً: «إنه أمر واعد، على ما يبدو».

أخذ نبضها يتسارع، وعجزت عن النظر في عينيه فحولت نظراتها عنه. ثم تمتمت، مخفضة أهدابها: «لقد ضيّعت وقتي فقط».

ـ آسف، فمنذ أيام وأنا أقضي وقتي في التنقّل في أرجاء البيت مكتئباً. ولعل الصداع ناتج عن السأم. قبل الحادث، كنت أعمل يومياً من الصباح وحتى المساء... كنت أعمل طوال النهار. ومنذ أن خرجت من المستشفى، اعتدت أن أطوف في أنحاء البيت، وأن أقوم بأعمال غريبة. لكنني لم أستعمل ذهني قط. فهل هذا ما دفعه إلى التمرد.

ـ وربما بالغت في وصفك لعوارض الصداع.

ـ لا، لم أبالغ. كان الصداع شديداً حتى إني فكرت مراراً في ضرب رأسي بالحائط.

صدّقت كلامه، لكن غضبها لم يزل: «لم أفهم بعد لماذا لم تخبر دايفيد

بالحقيقة، سواء صدقك أم لم يصدقك. . . بدلاً من أن تتركه يغادر المكان بهذا الشكل! ألا تظن أنك، بالتالي، أذنبت بحقي؟».

ـ ربما كنت فعلت لو لم يتكوّن لديّ انطباع بأن قلبك لن يتحطم إذا قطعك علاقتك به.

ـ أنت لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

ـ لدي عينان وأذنان، ولو كنت تريدين حقاً أن تسترضيه وتعيديه إليك لفعلت.

فعضت على شفتها. . . إنه فطن للغاية، وهذا ما أقلقها، فقد يستنتج أموراً لا تريده أن يعرفها. شعرت بالخوف من أن يتكهن شعورها نحوه، فالمذلة ستفوق قدرتها على الاحتمال.

ـ حسناً، على أي حال، أرى أنك لم تعد بحاجة إلّي، ولهذا سأعود إلى بيتي.

واستدارت لتتوجه نحو سيارتها، لكنه أمسك بذراعها قائلاً: «لا تذهبي».

رفعت عينيها إليه وقد بان الحذر فيهما. كانت ابتسامة زاكاري صبيانية، تتراوح بين الأسف والرجاء: «مضت أيام لم أتحدث فيها إلى أحد. هل أكلت؟ ليس لدي طعام كاف في المنزل. ولكن لدي بيضاً، ويمكنني تحضير طبق عجة. لا تتركيني وحدي، يا لويزا».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديها فيها باسمها، فتملكها الذهول.

ـ عليّ أن أعود.

كانت متلهفة إلى البقاء، لكنها خافت من أن تزداد آلامها. فهو مغرم بامرأة أخرى، واهتمامه بها أخويّ. إنه بحاجة إلى بعض الصحبة وهي أفضل من لا شيء.

فقال وهو يأخذ حقيبتها من يدها: «يمكنك، طبعاً، أن تبقي هنا ولو لساعة، ماذا تحملين في الحقيبة؟ آلات التعذيب؟».

ـ معدات طبية. ظننت أن وضعك يتطلب بعض الفحوصات.

وحاولت أن تستعيد الحقيبة منه، لكنه أبعدها عن متناول يدها: «حسناً، يمكنك معاينتي لتتأكدي من أن الصداع لن يعاودني. أليس كذلك؟ ثم أحضر أنا شيئاً للعشاء».

فردت بشيء من الحرج: «حسناً، أحضرت معي طعاماً. عندما اتصلت بي كنت قد انتهيت لتوّي من طهي طبق «الريزوتو»، فأحضرته معي. فكرت في أنني أستطيع تسخينه هنا إذا ما تأخرت عندك. . . لانتظار سيارة الإسعاف، مثلاً. . .».

فنظر إليها وقد ضاقت عيناه: «هل ظننتني مريضاً إلى هذا الحد؟».

ـ من الحكمة الاستعداد لأي طارىء. بدا من صوتك وكأنك تنازع.

ـ هذا ما كنت أشعر به حين اتصلت.

ـ هل «الريزوتو» في الحقيبة أيضاً؟

ـ نعم.

تخلت لويزا عن المقاومة. أرادها أن تسليه لأنه كان يحس بالضجر، فلا بأس. إنما تعلم أنه يفضّل رفقة امرأة أخرى، ويؤلمها هذا. لكنه ما زال بحاجة إليها، فلم تستطع السيطرة على تأثرها بوحدته هذه.. وتملكها أيضاً شعور بالذنب، فهي تلوم نفسها على الحادث.

ولكن كل هذه الأعذار والحجج لم تكن تمت إلى الحقيقة بصلة، فهي تريد أن تكون معه. إن مجرد النظر إليه يسعدها، وسماع صوته ينعش آمالها. . . فلم لا تسمح لنفسها بفترة قصيرة من السعادة؟ حتى وإن كانت وهماً. . . أو فردوساً خدّاعاً؟ فهي لن تفصح عمّا تشعر به. . . ستتمكن حتماً من إخفاء تلك المشاعر لليلة واحدة.

قالت له بصوت هادىء ثابت: «الطعام يكفي لشخصين، إلا إذا كنت جائعاً جداً».

فابتسم لها، مما جعل قلبها يخفق بين ضلوعها. يا لهذا التغيير الذي تحدثه ابتسامة في ملامح وجهه المشوّه بالندوب! هل يعتقد حقاً أنه بشع منفّر للنساء؟ لو أنه يعرف ردة فعلها حين ينظر إليها بهذه الطريقة، لأدرك مدى حماقة اعتقاده هذا.

اقترح، وهو يدخل الكوخ، وهي في أثره:

ـ يمكننا تناول الفاكهة بعد العشاء. المطبخ من هذه الناحية... لدي بعض التفاح والبرتقال والموز، يأتي لي أحدهم بالطعام من القرية مرتين في الأسبوع، ويحاسبني على الخدمة لكن الأمر يستحق العناء. فهذه الطريقة توفر علي رؤية الناس يحملقون فيّ حين أسير في الشوارع. لقد اعتاد صاحب المتجر على رؤية وجهي. حين قصدته لأول مرة، وقف يحدّق فيّ، ثم حاول ألا ينظر إلي مجدداً. وهذا جل ما أكرهه... الناس الذين يطيلون النظر إليّ، ثم يتظاهرون بأنهم لم يلاحظوا أي شيء غير عادي في وجهي.

اضطربت ثم هزت رأسها: «إنك، حقاً، تتصور كل هذا. ثمة ندوب في وجهك لكنها ليست بالبشاعة لتي تظنها».

مدّ يده فجأة وأمسك بيدها، فارتبكت وارتجفت أصابعها في قبضته. رفع يدها إلى وجهه وهو ينظر إليها: «المسيها... هيا... المسيها ثم قولي لي إنها ليست ندوباً بارزة بشعة».

جف فمها وهي تمر بأناملها على وجنته. شعرت ببروز الندوب، وبوخز شعر ذقنه، وبقسوة فكه الذي أطبق بصبر فارغ.

لم تستطع النظر في عينيه كي لا يكتشف تأثير لمسها له عليها. وبدلاً من ذلك أخذت تحدق في وجنته، وذقنه، وفمه، فاستعرت نار الحب في كيانها، وتسارعت خفقات قلبها.

تمتمت بصوت أجش: «إنها تجعلك تبدو كقرصان، أو كرجل خطير».

ضحكت، ورمقته بنظرة خاطفة، لكنها تمنت لو لم تفعل.

كان ينظر إليها بحدة. أتراه أدرك شعورها نحوه؟

احمر وجهها عندما قال برقة: «لكنني أريد أن أبدو جذاباً بنظر النساء وليس قرصاناً».

إنه يبدو كذلك! هذا ما خطر في بالها، فابتلعت بريقها وهي تتلهف لتمرير أصابعها على فمه. وعاد يقول ساخراً: «أرى أنك لن تقولي لي إني جذاب. فأصابعك هادئة ملطفة».

أبعدت أصابعها عنه، فضحك. وفجأة قالت: «أكاد أموت جوعاً، ومن الأفضل أن أعيد تسخين «الريزوتو»».

تأملت المطبخ، ثم هتفت: «آه، اشتريت فرن «ميكروويف» جديد! أم أن الشرطة قبضت على اللصوص وأعادت لك أغراضك؟».

هز رأسه لعلمه أنها تعمدت تغيير الموضوع.

ـ إنه فرن جديد. المواصفات نفسها، فقد تطلب مني تعلم كيفية عمل الفرن الأول وقتاً طويلاً ولا أريد تكرار التجربة.

ـ حسناً، يمكنني إعادة تسخين الطعام في دقائق معدودة.

كان المطبخ عصرياً، أما جدرانه فمطلية بلون أصفر فاتح مما أضفى عليه بهجة ونوراً، وقد صنعت الخزائن من خشب الصنوبر.

كان في المطبخ، أيضاً، مائدة وكراسي من خشب الصنوبر. فسألها: «هل يمكننا تناول الطعام هنا؟».

فأومأت قائلة: «أولاً، عليّ أن أقيس ضغطك ونبضك، فإذا كنت على ما يرام سنأكل».

جلس على كرسي قرب المائدة، فأخذت تراقب نبضه الذي بدا سريعاً

بعض الشيء . كما كان ضغطه قليلاً ، أما حرارته فطبيعية تقريباً . قالت له وهي تنهض : «ليس ثمة ما يستدعي القلق» .

ـ آسف لأني دفعتك للمجيء بسرعة . صدقيني .

غسلت يديها فوق الحوض ، وهي تجيبه : «لا بأس . أظنك على صواب ، وصداعك سببه السأم وعدم الحركة . يجب أن تعود إلى العمل بطريقة ما ، يا سيد ويست» .

ـ اسمي زاكاري . لا يمكنك أن تستمري بمناداتي بالسيد ويست ، يا لويزا .

ركزت نظرها على الفرن للحظة ، وسرّها أنها لا تواجهه . فتحت الفرن ووضعت الريزوتو فيه ، لكنها لم تبدأ بتسخين الطعام .

ـ هل لك أن تعد المائدة من فضلك؟ فهذا لن يتطلب سوى دقائق معدودة . هل لديك خضار؟

عملا معاً بانسجام ، ولم يكثرا من الكلام . وبعد دقائق جلسا لتناول الطعام .

علق زاكاري ، وهو يضع صحنه في غسالة الأطباق التي لم يتمكن اللصوص من حملها : «لذيذ! لم آكل ريزوتو بالخضار من قبل . هل هو من اختراعك؟» .

ـ إنني أكتفي بوضع ما أجده في الثلاجة .

ـ أنت طاهية بارعة . أظن أن هذا متوقع منك كممرضة .

ـ وما علاقة التمريض بالطهي؟ لم يعلمونا الطهي .

ـ عليك أن تكوني هادئة صبورة عند ممارسة التمريض . وهذا ضروري عند الطاهي .

ـ لا أظن ذلك . كان أحد الطهاة المشهورين في لندن في قسمي يوماً ، وكان ذا طباع حادة جداً . دخل المستشفى لأنه تشاجر في المطبخ مع طاهٍ

صيني ، وانتهى بهما الأمر إلى التراشق بأغراض المطبخ . فتلقى مريضي ضربة بالساطور ، بعد أن قذف الصيني بسكين تقطيع اللحم وأخطأه .

ضحك زاكاري : «أنت تمزحين» .

ـ لا .

ونظرت إليه يقشر برتقالة بأصابعه الماهرة ، فتملكتها رجفة صغيرة غريبة . فمجرد النظر إليهما يشعرها بوهن في ركبتيها .

رفع نظره إليها وسألها : «ألن تتناولي بعض الفاكهة؟» .

أسرعت تخفض بصرها وتمد يدها إلى تفاحة : «نعم ، طبعاً» .

ثم قالت تغيّر الموضوع : «هل فكرت في التنويم المغناطيسي؟ قد يساعدك على حل تلك العقدة النفسية التي تمنعك من العمل» .

فاستفهم مقطباً : «أتظنين ذلك؟ لا أحب فكرة تنويمي مغناطيسياً . أخشى أن يكشف أفكاري كلها شخص آخر» .

فطمأنته : «أثناء التنويم لن تخبر الطبيب إلا ما تريد أن تخبره به . فهذه الطريقة ناجحة كما ينجح الوخز بالإبر الصينية . لي صديقة كانت تعاني من الربو . خلّصها العلاج العادي من العوارض فقط ، ولكنها اضطرت إلى زيادة جرعات الدواء في كل مرة ، ولمدة طويلة ، مما شكّل خطراً عليها . وأخيراً نصحها أحد أطبائنا في المستشفى بأن تجرب الوخز بالإبر الصينية . وبعد شهرين استغنت صديقتي عن العلاج كله . صحيح أنها تتعرض لبعض الانتكاسات ، لا سيما حين تتوتر أعصابها ، لكن العلاج بالإبر الصينية ينجح دوماً ولا تحدث معه اشتراكات كالعلاج التقليدي» .

ـ لم أتوقع نصيحة كهذه من ممرضة في مستشفى!

ـ آه ، تعلمنا في هذه الأيام أن بعض العلاجات البديلة قد تساعد المريض .

ـ حسناً ، سأفكر في ذلك جدياً . أما الآن ، فسأحضّر القهوة . اذهبي إلى غرفة الجلوس وارتاحي قرب المدفأة .

www.elromancia.com

جالت في أرجاء غرفة الجلوس التي اقتصرت الإضاءة فيها على مصباح واحد بجانب الأريكة المواجهة للمدفأة. التقطت كتاباً ملقى على ذراع الأريكة، وجلست تتصفحه باهتمام.

ـ أرجو ألا تكوني قد ضيّعت صفحتي.

لم تسمعه يدخل، وفاجأها بكلماته فانتفضت مذعورة: «لا. وصلت إلى الصفحة ثلاثة وسبعون».

احمر وجهها وهي تضع الكتاب من يدها مفتوحاً على تلك الصفحة.

ـ هل تستمتع بقراءة هذا الكتاب؟

ـ جداً. لا بد أن رحّالة العهد الفيكتوري كانوا أشداء. فترحالهم إلى تلك الأماكن البعيدة على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام في غابات أفريقيا مشقة صعبة. كما أنهم لا يحملون غالباً سوى القليل من الأدوية، فيتعرضون، بالتالي، للأمراض الفتاكة.

ـ كان عليهم أن يكونوا أشداء حتى في أوطانهم، نظراً لانتشار أمراض التيفوئيد والكوليرا. فزوج الملكة نفسه مات بسبب التيفوئيد دون أن يستطيع الأطباء إنقاذه.

فضحك معلقاً: «كان عليّ أن أدرك أنك تعرفين تاريخ الطب كله! وفي الواقع، لم تكن الرحلة إلى المجهول أخطر من حياتهم العادية في الوطن».

ـ ها أنت تبالغ مجدداً.

ـ أتنعتينني بالكذب، يا امرأة؟

طرح سؤاله هذا بغضب ساخر ومد يده ليناولها فنجان القهوة.

عكست النيران ظله على السقف... فبدا أسود ضخماً، هيمن على المكان... فحبست لويزا أنفاسها. لقد ملأ الغرفة بحضوره كما ملأ حياتها من قبل. ولم يعد في العالم ما يهمها سواه.

***

٨ ـ متى سيأتي الأمير؟

في تلك الليلة، كان القمر بدراً. لم يغلق زاكاري ويست الستائر قبل النوم، ما جعل ضوء القمر يتسلل إلى الغرفة، ليقع على وجهه ويقلق نومه بأحلام غريبة.

كان يقود سيارته في طريق مظللة، من دون هدف. ومع ذلك كان لسبب ما، ينتظر... ينتظر شخصاً ما... أو حدثاً ما. وفجأة، رآها هناك... تلك الفتاة ذات الرداء الأبيض، ذاك الطيف الذي يلاحقه في أحلامه منذ أشهر. كانت بعيدة عن ناظريه، ولا يمكنه الإمساك بها. رآها تطوف في حديقة غارقة في ضوء الشفق البنفسجي. كانت صامتة كورقة سقطت من شجرة في الخريف، واهنة كنفس أو كآهة خافتة.

ورأى زاكاري نفسه يخرج من سيارته، ويسير في الحديقة. راح يناديها، ولكنه أحس بالتعاسة لأنه لم يكن يعرف اسمها. وساءه ألا يستطيع مناداتها باسمها فكيف تعلم بأنها من يبحث عنها؟

بدا له هذا الأمر جوهرياً. لو أنه يعرف اسمها! فكر في ذلك وهو يجدّ السير في ممر الحديقة. أحس بأنه يعرف اسمها، إنما نسيه في هذه اللحظة. أخذ يبحث في ذاكرته مراراً وتكراراً، لكن الاسم غاب عن باله.

لم يعد يراها، فقد اختفت من الحديقة. توقف وراح ينظر حوله وهو ينادي فيجيبه الصدى. توارت الفتاة ذات الرداء الأبيض عن أنظاره. لكنه

لم يستسلم، عليه أن يجدها . . . ظل يركض وينادي ويفتش في كل مكان بشكل محموم. ظن للحظة أنه لمح شعرها الأسود بين أوراق الشجر، وسمع حفيف ثوبها الطويل الأبيض وهي تختفي بسرعة بين الأشجار.

خرج من بين الأشجار ليجد نفسه قرب المنزل المتألق في ضوء القمر كالسراب. توقف زاكاري عند طرف مرج أخضر، يحدق في صف من النوافذ المفتوحة. وأحال ضوء القمر النوافذ كلها إلى مرايا تعكس الحديقة وتعكسه هو. كاد زاكاري يعود أدراجه، عندما لمح طيفاً عند إحدى نوافذ الطابق السفلي. أطل وجه من بين ستارتين. كان وجهاً جميلاً، ذا عينين حالمتين زرقاوين تراقبانه. ففر قلبه ما بين ضلوعه. إنها هي!

رآها بوضوح، شعرها الأسود الطويل، ووجهها الأبيض النقي، وجسمها الرقيق في الثوب الأبيض الطويل. مدت يديها إليه، فأسرع نحو المنزل. راح يركض بلهفة. سيراها وجهاً لوجه، أخيراً!

وقبل أن يصل إلى المنزل سمع صوتاً مدوياً كطلقة رصاص. وعندما نظر مذهولاً، أخذت تقفل النوافذ الواحدة تلو الأخرى حتى لم يعد يرى شيئاً. فبدا المنزل مقفلاً كلياً.

ركض نحو الباب الأمامي وبدأ يطرقه. لكن وفيما هو يناديها ويقرع الباب، استيقظ من نومه وكأنه غواص يصعد إلى سطح المياه بسرعة بالغة. فاهتز جسده وراح يرتجف.

تملكه الخوف والذعر للحظة، ولم يستطع أن يتذكر أين هو وماذا حدث له. ثم سمع أصواتاً مألوفة. . . الموج المتكسر على الشاطىء قرب المنزل، وزعيق النوارس، وولولة ريح الشتاء.

جلس وهو يتأوه، ونظر إلى الساعة. إنها السابعة صباحاً! كاد الليل أن ينجلي. شعر زاكاري بإنهاك شديد، وكأنه لم ينم أبداً. وبقي مستلقياً في سريره مقطب الجبين. فكّر في حلمه، وحاول أن يفهم معناه. لِـمَ أقفلت

نوافذ المنزل في وجهه؟

فهتف به هاتف في داخله، لأنها ليست لك. . . ، ألا تفهم؟ عليك أن تنساها. هذا هو معنى الحلم. ابحث عنها كما تشاء، لكنك لن تجدها أبداً. . .

غادر سريره غاضباً، ليواجه برودة الفجر. الأحلام! ما معناها، على أيّ حال؟ سيخرج يوماً ما للبحث عنها. وهو واثق من أنه سيعثر عليها، ومن أنها في انتظاره.

عبر الغرفة، فلمح نفسه في المرآة. رأى جسده متوتراً من الإحباط، فأخذ يتأمل نفسه بكآبة. إذا ما تجاهل وجهه، بدا طبيعياً كلياً. كتفاه مصقولتان لا أثر للحروق فيهما، وقد عاد الشعر الأسود ليظهر على صدره، ويزحف إلى بطنه التي ما زالت مسطحة بالرغم من بقائه طريح الفراش لأشهر عدة.

أمضى في الخريف الماضي، بعض الوقت في جنوب فرنسا مع شقيقته فلورا وأسرتها. وقد حافظ جلده على السمرة التي اكتسبها حينذاك. كما بدا وجهه في أفضل حال عندما لوّحته الشمس. وإذا ما صدق جرّاح التجميل فستكون العملية التالية هي الأخيرة. وستختفي الندوب، ليعود وجهه إلى ما كان عليه قبل الحادث، تقريباً.

ولكن كيف سيطلب من فتاة أصغر منه سناً، لها مثل ذلك الوجه النقي الذي ينضح براءة وجمالاً. كيف يطلب منها أن. . .؟ لا، لن يستطيع. وتحول غاضباً عن المرآة، متوتراً شاحب الوجه. استحم، وارتدى ثيابه، بنطلون من الجينز وكنزة سميكة. ثم تناول فطوره، وشرب كوباً من القهوة ليتوجه، بعد ذلك، إلى محترفه حيث وقف يحدق في القماشة البيضاء.

شعر برغبة في الرسم. فإذا رسمها، قد لا تراود أحلامه مجدداً، أم قد

يعثر عليها؟

لم تنم لويزا جيداً، هي أيضاً. فضوء القمر انسل من بين ستائرها وجعل نومها متقطعاً، كما راودتها حين غفت أحلام غريبة عن زاكاري. لم يحدث قط أن رأت مثل تلك الأحلام المزعجة. . . التي تدفع بها إلى التقلب في فراشها الدافىء وجسدها يرتعش. ومع ذلك لم تشأ أن تستيقظ. وكل ما استيقظت، شعرت أنها ستصرخ لخيبة أملها، فهي تستيقظ دائماً في اللحظة غير المناسبة.

حلمت بأنها على الشاطىء مع زاكاري، وكان مستلقياً إلى جانبها على الرمال البيضاء. استلقت هي على جانبها، وأسندت رأسها على يدها وراحت تنظر إليه. لم تستطع تحويل نظراتها عنه. كان يرتدي قميصاً أبيض مفتوحاً وبنطلوناً من الجينز فبدا جذاباً للغاية. تحرك وهو يتثاءب ثم فتح عينيه. ابتسم لها فشعرت بسعادة غامرة. أدركت أنه سيقول لها شيئاً. . . شيئاً. . . هاماً. . . شيئاً رائعاً. . .

وإذ بها تستيقظ. تأوهت، ونظرت إلى الساعة. إنها الثالثة صباحاً! استلقت مستيقظة تفكر في زاكاري، ثم عادت إلى نومها المتقطع.

وفي تلك الليلة عادت وحلمت بأنها على الشاطىء مع زاكاري. لكنه في هذه المرة، لم يكن يرتدي سوى لباس السباحة، كما وضع نظارة شمسية. كانت الشمس تلمع على جسده الذهبي الرائع، مما جعل فمها يجف شوقاً.

همس لها: «تعالي يا لويزا».

فارتعش جسدها من الذعر. استيقظت وهي ترتجف، لكن الألم اعتصرها لأنها لم تذهب إليه. أواه، لِـمَ استيقظت في تلك اللحظة بالذات؟

بقيت مستيقظة طويلاً، وقد استولت على ذهنها صور ذلك الحلم.

لكنها استغرقت أخيراً في النوم فحلمت بأنها تركض بين الأمواج المتكسرة على شاطىء بحر. والسماء زرقاء والمياه من حولها وطيور النورس تزعق فوق رأسها. وشعرت بأن هناك من يتعقبها. سمعت صوتاً ضرب المياه خلفها. التفتت ضاحكة، فرأت زاكاري وراءها، يسعى إليها. . . فأحست بالشوق يجذبهما.

أدركها وأخذها بين ذراعيه، فتأوهت مسرورة. لكنها تعثرت فوقعت في البحر الأزرق. سقط زاكاري معها، فأخذا يتقلبان مع الأمواج، وشعرها يطفو على المياه كعشب طفيلي. لم تعرف لويزا من قبل هذه المشاعر الجامحة. تململت بشوق وصوت البحر يمتزج مع صوت أنفاسهما، ورفعت يديها تمررهما في شعره المبتل.

وبعد لحظة، استيقظت وهي ترتجف ألماً. كانت على وشك البكاء لأن الحلم لم يستمر إلى النهاية. ولاحظت أن الشمس قد أشرقت، فنهضت، وجلست في مطبخها الصغير، تشرب فنجاناً من القهوة وتنظر إلى السماء الصافية. وفكرت في أنها كلما أسرعت في العودة إلى العمل كلما كان ذلك أفضل، فضغط العمل لن يترك لها مجالاً للتفكير بزاكاري ويست.

تناولت طعام الغداء مع أبيها. كان الجوّ شديد البرودة فارتجفت حين خرجت من سيارتها لتتجه إلى المطعم. استقر الثلج المتساقط على رأسها ومعطفها، فسرّت عندما أصبحت في الداخل.

لوّح لها أبوها بيده. فتقدمت نحوه ولاحظت الإرهاق الكبير البادي على وجهه، كما لاحظت الخطوط العميقة التي ظهرت عليه. لقد كبر سنوات منذ حادث الاصطدام.

لكنها استطاعت رسم ابتسامة عريضة مشرقة على وجهها وهي تقول له: «مرحباً أبي. آسفة لتأخري. أخرتني زحمة السير. ماذا تشرب؟».

توجّه النادل متمهلاً لإحضار ما طلبته. جلست لويزا قرب أبيها

www.elromancia.com

وتناولت قائمة الطعام التي كان يقرأها. وقالت، ونظراتها تتفحصها: «أليس البرد قارساً؟ أصابعي زرقاء من شدة البرد. إنه نهار يحلو فيه تناول الحساء، ومن ثم سمك السلمون. ماذا ستطلب يا أبي؟».

فرد من دون اكتراث: «آه، لا يهمني. سآكل ما تطلبينه».

ألقت عليه نظرة اهتمام، وسألته: «كيف حالك يا أبي؟».

ـ بخير.

ـ ونويل. كيف حالها؟

ـ مشغولة.

بدت تجاعيد وجهه أعمق، ثم أكمل قائلاً: «إنها بارعة في الأعمال، يا لويزا. فهي تفرحها حقاً. لقد اعتدت أن أكون متحمساً مثلها، لكن كل ذلك انتهى الآن».

وبعد أن جلسا إلى مائدتهما، أتى على ذكر بيع المصنع.

ـ إنه عرض جيد وقد لا أحصل على أفضل منه لا سيما في الوضع الاقتصادي الحالي. سأحصل فوراً على مبلغ نقدي كبير في حال توجّب علي دفع تعويض ضخم لويست.

ـ أليس من الحكمة أن تنتظر حتى تنتهي القضية؟ سيعطيك هذا مزيداً من الوقت للحصول على عرض أفضل.

ـ وقد لا أحصل على عرض أفضل.

ـ أصبحت انهزامياً، يا أبي! أظن أن عليك أن تستشير نويل والمحاسبين لديك قبل أن تتخذ قرارك. ولكن هناك نقطة أخرى. . . إن أنت حددت ثمناً أكبر للمصنع ولم تبعه بهذا الثمن البخس، وبدأ عرض القضية، ستأخذ المحكمة بعين الاعتبار الثمن الأعلى عند تحديدها التعويض.

نظر هاري جيلبي إليها مستغرباً، ثم ضحك وقد أشرق وجهه قليلاً:

ـ إنك ذكية جداً. ومن المؤسف أنك لم تدخلي دنيا الأعمال بدلاً من التمريض.

قطبت جبينها، وبدا التردد في عينيها: «لم تقل يوماً إنك تريدني أن أفعل ذلك، يا أبي. عندما أعلمتك أنني أريد دراسة التمريض، شجعتني».

ـ إنها مهنة رائعة، يا عزيزتي. فلا تبدي هذا القلق. على أي حال، لم أتوقع منك أن تعملي معي.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة حين أضاف:

ـ أظن أن أفكاري رجعية. فقد اعتبرت أن الفتيات لا يصلحن لدنيا الأعمال. كما توقعت أن تتزوجي في سن مبكرة، ولربما اخترت شخصاً يحب العمل معي في الشركة. هذا ما فكرت فيه بخصوصك. وقد تعلمت الكثير منذ ذاك الحين، وخصوصاً منذ زواجي من نويل. عندما كانت سكرتيرتي كانت كفوءاً متواضعة. لكن حين أصبحت زوجتي تغيرت كلياً. لم أرَ وأكتشف طبيعتها الحقيقية يا لويزا، كنت أعمى.

بدا في عينيه الحزن والاستسلام، وهو يكمل: «إنها طموح جداً وعنيدة جداً».

ـ نعم.

شعرت لويزا بأسى عميق لزوال الغشاوة عن عيني أبيها. فقد كانت تفضل أن تراه سعيداً راضياً في زواجه رغم أنها لم تحب يوماً زوجة أبيها.

ثم قال أبوها عابساً: «في الحقيقة، أنا خائف جداً من إخبارها عن رغبتي في بيع المصنع. ستجعل حياتي جحيماً إذا علمت أننا في ضائقة مالية».

قطبت لويزا مفكرة: «إذا كانت ذكية في إدارة الأعمال بقدر ما تظن أنت، فلا بد أن لديها فكرة عن الموضوع. كن صريحاً يا أبي وأخبرها

بالحقيقة. أظنك تدين لها بهذا. إنها زوجتك ويحق لها أن تعلم الحقيقة».

أمضيا بقية الوقت في مناقشة هذا الموضوع. واستطاعت أخيراً أن تقنعه باطلاع نويل على الوضع ذلك المساء.

ونبّهته قائلة: «من الأفضل ألا تخبرها أنك ناقشت الأمر معي».

فابتسم أبوها بكآبة: «أنت على حق، فلن أذكر حتى اسمك. إنني آسف لأنكما غير منسجمتين بسبب طباعها الصعبة».

وتأوه طويلاً ثم أضاف: «الزواج علاقة صعبة، يا عزيزتي. عندما تريدين الزواج، فكري ملياً بالأمر».

ـ سأفعل، فلا تخف.

ـ أما زلت تخرجين مع الطبيب؟ ما اسمه؟ دايفيد؟

هزت رأسها نافية.

فقال وهو ينظر إليها بعطف: «آسف لذلك، فقد أحببته. كان يبدو رجلاً طيباً».

ـ هذا صحيح، لكننا لم نكن... أنا لم...

ـ لا بأس. أميرك سيأتي يوماً ما، يا عزيزتي.

وبقيت كلماته تتردد في ذهنها، حتى وصلت إلى بيتها (أميرك سيأتي يوماً ما... أميرك سيأتي...) لم يكن زاكاري ويست أميراً... كما لم يكن أميرها هي بالطبع. لكنها تمنت لو استطاعت أن تتحدث إلى أبيها عنه. تمنت أن تتحدث إلى أي شخص عنه، عن شعورها نحوه، ولكن لا مجال لذلك. استمعت إلى أبيها يتحدث بحزن عن نويل، وعن مقدار حبه لها، وخوفه من أن يفقدها... لكنها لم تتلفظ بكلمة واحدة عن أمورها المعقّدة ومشاعرها الجريحة. كان هو آخر شخص يمكنها أن تطلعه على مشاعرها نحو زاكاري.

اتصل بها أبوها في اليوم التالي، وقال لها بسرور: «أخبرت نويل الليلة

الماضية، وكنتِ على حق، يا عزيزتي، فهي لم تفاجأ...».

ـ نعم، فقد تصوّرت أن لديها فكرة عن الموضوع!

ـ إني مستاء لأنني لم أخبرها من قبل. قالت إنها أدركت أننا نمر بأزمة، لهذا عملت بجد ونشاط لوضع الشركة على أساس متين. رأت أننا سنحصل على سعر أفضل، إذا ما كانت المؤسسة منتجة وناجحة وليس على شفير الإفلاس.

قالت ببطء، وقد أدركت أن عليها أن تعيد التفكير في رأيها بنويل: «إنها على صواب».

ـ لكنها لم تقبل بالعرض الحالي. فهي تتعامل مع رجل من «بيرمنغهام»، يملك سلسلة من المتاجر في شمال إنكلترا، ونحن نقوم بتصنيع منتجات عدة له. وتظن نويل أنه قد يساعدنا، ويصبح شريكاً لنا. فهو يسعى لتوسيع أعماله نحو الجنوب كما يود امتلاك بعض مصادر المنتجات، ليقلل من نفقاته.

فقالت مقطبة: «وهل أعجبتك الفكرة؟ أعني أن تبيع المصنع له».

ـ حسناً، أظنني أود أن أتقاعد. لقد سئمت إدارة الأعمال. فقد عملت معظم حياتي، وحان وقت الراحة، ولعب الغولف.

ـ ولكن ألن تضجر يا أبي؟

ـ لقد ضجرت من العمل. وإذا مللت من التقاعد يمكنني العودة إلى العمل. لكن أمامي الآن سنوات عدة... فأنا ما زلت نشيطاً. وسأستمتع بعدم اضطراري للعمل، من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً، لستة أيام في الأسبوع.

سألته وقد شعرت ببعض الارتياح: «أنت لا تقوم بهذا العمل، إذاً، لتزيد رأس المال لتدفع التعويض لزاكاري ويست؟».

ـ لا. إن نويل على حق. لقد فقدت اهتمامي بالعمل قبل أن أتعرف

إليها. وسيسعدني أن أتقاعد وأدع نويل وذلك الرجل يتسلمان المسؤولية. يبدو أن نويل تخطط لاستلام العمل يومياً، وسيهتم شريكنا الجديد بالأعمال من حين إلى آخر. وستبقى الأمور كما هي، ما دامت نويل ناجحة وهو راضٍ بالنتيجة.

ـ أنا واثقة من أن نويل ستنجح.

ـ وأنا واثق من ذلك، أيضاً.

عندما عادت إلى عملها، وجدت التعاون مع دايڤيد صعباً. كان مهذباً للغاية، إذ لم يكن من النوع الفظ أو الحقود. ولكن تصرفاته اتصفت بالبرودة كلما اجتمعا. وكانت تجد ذلك مؤلماً، لا سيما في حضور الآخرين.

توقفا عن تبادل النظرات، وقد أدركا أن انفصالهما أثار الأقاويل في المستشفى. وتمكنت بشكل ما، من الاحتفاظ بابتسامتها الهادئة. ومن التظاهر بعدم الاهتمام. لكنها كرهت أقاويل الناس عنها، وعن أن دايڤيد يتألم بسببها.

ولكن، لم يكن بيدها حيلة. لو استطاعت لشرحت له أنها ضحية هي أيضاً. فهي لم تشأ أن تقع في غرام شخص آخر، وقد صدمها هذا ودمّر حياتها. لم تحاول أن توضح له الأمر. فدايڤيد كجرّاح فصلها عن حياته على الفور، ومن دون تردد. وقد احترمت لويزا قراره هذا.

وسرعان ما علمت أن دايڤيد يخرج مع فتاة أخرى. لم يطلعها أحد على الأمر مباشرة، لكنها استنتجت ذلك من التلميحات التي تكثر في حضورها. كما كان الاحمرار يعلو وجه إحدى ممرضات قسم الأمراض النسائية كلما رأت لويزا.

لم تشعر لويزا بالألم، لأنها لم تكن مغرمة بدايڤيد. لكنها شعرت بوخزة غيرة عندما رأتهما أخيراً معاً، يسيران نحو موقف سيارات المستشفى. لم

يمسك أحدهما بيد الآخر، لكن أيديهما كانتا تتلامسان. فتدفقت ذكريات لويزا. اعتادت، هي ودايڤيد أن يشبكا يديهما في الريف، وأن يتبادلا الابتسامات بهذه الطريقة. كان ذلك قبل أن تعرف زاكاري وتدرك الفرق بين الدفء العاطفي، وحرارة الشوق الذي شعرت به نحو زاكاري.

أشاحت بوجهها وهي توبخ نفسها. ماذا جرى لها؟ ما الفائدة التي تجنيها من اجترار الذكريات؟ إنها تتمنى له الخير، فهو رجل طيب يستحق السعادة. لكنها حسدتهما على علاقتهما الحميمة. تلك العلاقة التي تجعلهما في عالم خاص، لا يدخله سواهما.

وفي اليوم السابق لانعقاد جلسة النظر بقضية أبيها، اتصل بها هذا الأخير، ليذكرها بذلك قائلاً: «ليس مطلوباً منك الإدلاء بشهادتك، فإذا شئت ألا تحضري...».

عرضت على المحامي أن تدلي بشهادتها، لكنه رأى أن ما من ضرورة لذلك. فما من خلاف حول سبب الحادث. لقد اعترف هاري جيليي بالوقائع التي أدلى بها الطرف الآخر، وأقرّ بأنه قطع المنعطف بسرعة كبيرة. وكان محاميه يرجو أن يبرهن أن زاكاري ويست لم يكن منتبهاً تماماً هو أيضاً، وإلا لرأى السيارة الأخرى.

لم تطلع لويزا أحداً على ما أخبرها به زاكاري. لم تتحدث عن الفتاة التي رآها تسير في الحديقة. قطبت جبينها وهي تتساءل عما إذا كان عليها ذكر ذلك؟ هل كان ذهنه مشتتاً حين رأى سيارة أبيها تندفع نحوه؟ وهل هذا يبرىء أباها؟ ولكن لا. كان زاكاري يقود سيارته ببطء شديد، وعلى جهته من الطريق. وسواء كان يفكر في الفتاة التي رآها أم لا، فاللوم يقع على أبيها وحده.

وأنا أيضاً! فكرت في ذلك والشعور بالذنب يثقل قلبها. لو أنني لم أتصل بأبي... لو أنني لم أكن مستاءة كالأطفال لأنه نسي عيد ميلادي...

www.elromancia.com

قال أبوها ببشاشة: «الخبر الجيد هو أن علاقة العمل مع عميل نويل في بيرمنغهام تتقدم. لم نستقر بعد على مبلغ معين لأنه يريد أن يدرس محاسبوه الدفاتر أولاً. لكنه يبدو رجلاً عادلاً... رجلاً صعباً، لكنه عادل، وأنا أحبه. أظنه سيحفظ وعده، ويلتزم بكلمته، مهما حدث في المحكمة. إن نظرتي للمستقبل متفائلة يا عزيزتي».

- أنا مسرورة يا أبي.

لكنها ما زالت تشعر بالذنب، وتلوم نفسها لتسببها بالحادث.

نظرت لويزا إلى ساعتها وهي تضع السماعة. كانت الساعة الثالثة، ولن تستلم عملها قبل الساعة الثامنة إلا ربعاً. أسرعت في إنهاء أعمالها المنزلية، ثم تزينت وخرجت. اتجهت بسيارتها إلى خارج المدينة، نحو البحر. كان الجوّ معتدلاً بعد أن أمطرت أثناء الليل. رأت أزهار نرجس تحت الأشجار في الحدائق، ولم يبد فصل الربيع بعيداً عصر ذاك اليوم.

أوقفت سيارتها خارج بوابة زاكاري، وعندما خرجت منها أطل هو من نافذة محترفه.

سارت نحو البيت وهو ينظر إليها. كانت الريح الباردة تشعث شعرها حول وجهها وترفع تنورتها الرمادية الواسعة عن ساقيها فاضطرت إلى إمساكها بيديها.

فتح زاكاري النافذة وابتسم لها ابتسامة ساخرة: «يمكنني التكهن بسبب حضورك».

- لا أظن.

- أتراهنين؟

- لا أحب المراهنة. جئت أصطحبك إلى المحكمة. لقد تذكرت أنك غير قادر على قيادة سيارتك، وهذا يوفر عليك استدعاء سيارة أجرة.

- يا لشهامتك! هل تأملين أن أعفي أباك من التعويض لقاء ذلك؟

- لست متفائلة إلى هذا الحد؟

- وأنا كذلك، لأنني لا أستطيع. لو أمكنني ذلك، لفعلت، يا لويزا. ولكن في قاعة المحكمة يجب أن أروي ما حدث بالضبط. كان أبوك يقود سيارته على جهتي من الطريق، وقد قطع المنعطف بسرعة جنونية. إنها الحقيقة وعليّ أن أقولها.

قالت وهو يفسح لها الطريق لتدخل: «لا أريدك أن تكذب، ولكن هل ستخبر المحكمة بأنك لم تكن مركزاً على القيادة كذلك؟».

- ماذا؟

قطب حاجبيه، فأشاحت بوجهها، وقد جف فمها توتراً.

ثم قالت، شاعرة بأنفاسه خلفها: «كنت تقود سيارتك وأنت في حالة ذهول، أليس كذلك؟».

رد عليها بحدة: «عما تتحدثين بحق الجحيم؟».

أخذت ترتجف، لكنه لن يرهبها، ولن تتراجع. كانت مصممة على قول ما جاءت لأجله.

- كنت مشغولاً عن الطريق بالتفكير حالماً بالفتاة التي رأيتها.

ساد صمت قصير، ثم قال: «كنت أقود سيارتي ببطء على ناحيتي من الطريق. وأبوك هو الملام على الحادث».

- ليس تماماً. ربما يقع معظم اللوم عليه... لا أنكر هذا، ولا هو ينكره... لكن لو كنت متيقظاً، لو كنت أكثر تركيزاً، بدلاً من أن تسترسل في أحلام اليقظة، لربما تمكنت من تجنبه.

وانفجر زاكاري يقول غاضباً: «لا بد أنني كنت مجنوناً عندما أخبرتك ذلك».

وقبض على ذراعها وأدارها بعنف لتواجهه. أسدلت أهدابها لتخفي عينيها اللتين عجزتا عن النظر إليه. ليس لأنه يخيفها... وإن كان ذلك

www.elromancia.com

صحيحاً عندما يعبس بها بهذا الشكل. ولكن لأنها خافت أن يرى النظرة تلك تحملها عيناها، فيقرأ المشاعر العنيفة التي انتابتها حين اقترب منها وأمسك بها. لقد أفصحت له عن سببين لزيارتها، وهي أن تؤمن له وسيلة مواصلات أولاً، وأن تظهر له أنه لم يكن مركزاً انتباهه على الطريق. ولكن هناك سبب ثالث لزيارتها هذه. كان عليها أن تراه، فقد بدا لها وكأن سنة مضت على آخر لقاء بينهما.

ـ لكنك أخبرتني. ألا تظن أنه عليك أن تعلم المحكمة بدلاً من أن تدع اللوم كله يقع على أبي؟

فهزها بغضب: «هذا هو السبب الذي جعلك تحضرين مراراً إلى هنا، أليس كذلك؟ جئت تستدرجينني لأخبرك بشيء يمكنك استعماله ضدي في المحكمة. كنت تتظاهرين بأنك المرضة الهادئة الرقيقة، كعذراء الرسوم القديمة، ببشرتك الناعمة وعينيك الزرقاوين الواسعتين...».

اضطربت ورفعت بصرها إليه. فأمسك بذراعيها يجرها نحوه ثم أحنى وجهه الغاضب فوق وجهها: «كان عليّ أن أكون أكثر حكمة. كان عليّ أن أتذكر أنك امرأة مهما كان مظهرك، والنساء هن أكثر المخلوقات مراوغة ونفاقاً وخداعاً...».

فردت وهي تتملص منه بتعاسة.

ـ لا، أنا لست كذلك! لا تقل عني مثل هذه الأشياء، يا زاكاري. أنت لا تعتقد أني مراوغة ومخادعة، أليس كذلك؟ لا يمكنك...

راحت نظراته الغاضبة تغوص في عينيها الزرقاوين، فلم تستطع أن تحوّلهما عنه. إنما بادلته التحديق كالمسحورة وقد خلا ذهنها من كل شيء ما عداه.

زاكاري، زاكاري! هتف ذهنها باسمه، وهي تنظر إليه وكأنها تحفر صورته في قلبها إلى الأبد.

أخذت نظراته تنتقل ببطء على ملامح وجهها المرفوع، من عينيها إلى فمها المفتوح المرتجف. لم يكن لديها أدنى فكرة عما يراوده من أفكار، لكنها لم تهتم. كل ما كانت تريده هو أن يعانقها، فشوقها إليه جعل عينيها تغرورقان بالدموع. رأى دموعها فقطب جبينه، متمتماً: «لا تفعلي هذا! لِـمَ تبكي النساء دوماً حين يخسرن الجدال؟ هذه إحدى حيلهن ليحصلن على ما يردن».

ورفع يده إلى وجهها يمسح الدموع عن أهدابها، ثم نظر إلى آثار الدموع على أصابعه غير مصدق: «هي حقيقية أيضاً».

ـ أنا أكرهك.

شهقت بالبكاء، وشعرت بأنها تكرهه في هذه اللحظة بقدر ما أحبته من قبل.

فقال متنهداً بجفاء: «كفي عن البكاء، فقد ربحت المعركة. سأعترف بأنني لم أكن مركزاً تماماً على القيادة عندما برز أبوك من وراء المنعطف. سأفعل كل ما يمنعك من البكاء. لا يمكنني احتمال ذلك، إذ يجعلك تبدين في غاية الضعف والانهزام».

ابتسمت من خلال دموعها التي انهمرت بغزارة: «حقاً، ستفعل هذا؟».

أحنى رأسه ببطء، فترنحت ومالت نحوه بلهفة بعد أن أوهنتها مشاعرها الجامحة.

أغمضت عينيها حين عانقها، وقد تملكها سرور غامر. كانت متلهفة لعناقه منذ دخلت الغرفة، فشوقها إليه يكاد لا يحتمل.

خلع عنها معطفها وتركه يسقط على الأرض، ثم أحاطها بذراعيه. رفعت ذراعيها، وشبكت يديها خلف رقبته.

قطع عناقه فجأة، ودفن وجهه في عنقها. وتمتم قائلاً: «إنك

تحيرينني. أنت باردة للغاية من الخارج، فيما تستعر في داخلك عواطف محمومة... إنكِ جبل من الثلج أليس كذلك؟ لا يبدو منك على سطح المياه سوى جزء بسيط، ومن يصطدم بك يتحطم إن لم يكن حذراً».

انفجرت تقول، وقد أحست بالألم: «كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام القاسي؟ أنت لا تعرفني...».

رفع رأسه ونظر إليها بفروغ صبر: «أتظنين أنني لا أدرك هذا؟ ليس لديّ فكرة عما يجول في رأسك. وعندما أكون معك، لا أفهم ما يجول في رأسي أنا، أيضاً.

وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أكمل: «فلماذا، مثلاً، أعانقك كل ما قابلتك؟».

توهج وجهها احمراراً، وردت: «أتعني أنني ألقي بنفسي عليك؟».

أتراه يتكهن بشعورها نحوه؟ وودّت لو تبتلعها الأرض».

هز زاكاري رأسه، وقال: «لا، بالطبع، فأنت متحفظة جداً. لو كنتِ من النوع الذي يلقي بنفسه عليّ، لتجنبتك، صدقيني. فأنا أكره هذا النوع من النساء. لا... أعلم أنني أقوم دائماً بالمبادرة».

ـ لماذا تسألني، إذن، ما دمت تعلم أنك تقوم بالمبادرة الأولى دائماً؟ أجب أنت على هذا السؤال!

وحبست أنفاسها، متمنية لو تعرف الجواب هي أيضاً.

تركها زاكاري وسار مبتعداً، محني الرأس: «لا أستطيع! كما أنني لم أكن أسألك الجواب. كنت فقط أفكر بصوت عالٍ. أنا في حيرة من أمري بسبب التأثير الذي تحدثينه في نفسي. ولم أجد الجواب بعد. ربما ألحق الحادث الضرر بدماغي من دون أن يبدو الخلل في صور الأشعة».

فأسرعت تطمئنه: «كل شيء طبيعي في رأسك. لقد رأيت صور الأشعة، كما أنك خضعت لفحص دقيق. لم يلحق أي تلف بدماغك».

ـ أنا أنسى دائماً أنك ممرضة. لكن هذا لا ينفع. ربما بقيت وحيداً لفترة طويلة، لذا أكثر التفكير. ومؤخراً لاحظت أني أفكر فيك غالباً...

شعرت بقلبها يخفق، ثم تذكرت الفتاة الأخرى، تلك التي رآها قبل الحادث والتي ما انفك يحلم بها منذ ذلك الحين.

ـ وماذا عن فتاتك ذات الرداء الأبيض؟ ألم تعد تفكر فيها؟

فرد والارتباك يرتسم على وجهه: «طوال الوقت، ما زلت أحلم بها، ولكن أحياناً...».

وسكت مقطباً جبينه. فسألته: «أحياناً ماذا؟».

لم يجب. كان يقف أمام الركيزة، وسط الغرفة. يحدق في القماشة المثبتة عليها، ويداه في جيبيه. أخذت تنظر إليه، وتفكر في جاذبيته المدمرة. تلك الجاذبية الصارخة، التي أبرزها بنطلون الجينز والكنزة الرقيقة.

ابتلعت ريقها ثم تقدمت نحوه لتقف بجانبه وتنظر إلى اللوحة.

ـ هل رسمت أي شيء؟

فصرخ غاضباً: «لا أريد أن يرى أحد هذا العمل».

ستر اللوحة بجسمه وكتفيه العريضتين، ولكن الأوان كان قد فات، إذ رأت الرسم.

لم تكن اللوحة منتهية. لكن الخطوط الرئيسية كانت واضحة. الأشجار، السياج، شفق الغروب والقمر. وفي المقدمة، بياض غامض... شكل امرأة في ثوب أبيض فضفاض، انسدل شعرها الأسود على كتفيها وقد أشاحت بوجهها.

عرفت لويزا على الفور ما رأته... إنها صورة المرأة التي رآها زاكاري في الحديقة ذاك المساء. كانت التفاصيل التي ذكرها لها، موجودة كلها. مما أثار غيرتها وحساسيتها، فاستوعبت كل شيء بنظرة واحدة. كان للصورة طابع سحري غريب، الضوء الخافت، الفتاة في ثوبها الأثيري، القمر خلف

أوراق الشجر الفضية ونوافذ المنزل التي أومضت بغموض. بدا كل ذلك مبهماً مثيراً للفضول، يدفع الناظر إلى السعي لسبر الغموض في هذه الصورة.

اضطربت، وتأملت عيناها وجه الفتاة، ثم ما لبثتا أن شعتا بذهول وعدم تصديق.

كان الوجه وجهها هي.

***

٩ ـ عذراء تنتظر حبيبها

وفيما كانت تعمل ذاك المساء، استرجعت لويزا ذكرى تلك اللحظة. كانت من الذهول بحيث لم تسأل زاكاري أن يشرح لها الأمر. اكتفت عندها بالالتفات إليه والتحديق فيه بعينين مذهولتين، فما كان منه إلاّ أن احمر وجهه وغمتم على الفور:

ـ لم أعد أتذكر وجهها. أتذكر الانطباع الذي تركه في نفسي. وعندما أحلم بها أرى وجهها بوضوح، ولكن حين وضعت الخطوط المبدئية لهذه الصورة اضطررت لترك وجهها. ثم عدت إليه فلم يتمكن ذهني من استرجاع الصورة، بالرغم من محاولاتي المتكررة. فكرت في ألا أرسم وجهها. سيكون هذا غريباً، وقد يجعل للوحة معنى. أمر كهذا يسلي عشاق الفن. لكنني لست من أولئك الرسامين، فأنا لا أحب الحيل والألاعيب التي تؤثر على الناظرين. فيما كنت أحاول أن أتخذ قراراً، وجدت نفسي أرسم دون وعي، عينين وأنفاً وفماً. . . تراجعت إلى الخلف لأنظر إليها، فرأيتها أنت. وبدت لي الصورة ملائمة. وهكذا عندما نقلتها إلى القماشة، رسمت وجهك أنت.

وراح ينظر إلى القماشة وقد تصلّب فمه. فيما حدقت فيه، متمنية لو تكتشف ما يفكر فيه.

ألقى عليها نظرة غامضة، وسألها: «هل لديك مانع؟».

فما كان منها إلا أن هزت رأسها دون أن تتكلم. أتمانع؟ كان قلبها يخفق بين ضلوعها، فخيّل لها أنها ستفقد وعيها. ولكن ما معنى هذا؟ ولِـمَ رسم وجهها بدلاً من وجه فتاة أحلامه؟ وأصبح صوته أجش، وهو يقول:

ـ ربما تدركين الآن لم قلت لك إنني حرت في أمرك . . . لست أنتِ من يحيرني، بل تحيّرني نفسي، فأنا أجدك بين ذراعي دائماً. وحين حاولت أن أرسم وجهها، وجدت نفسي أرسم وجهك. يبدو وكأن الصورتين امتزجتا في رأسي.. لكنني لا أفهم السبب! ما الذي حلّ بعقلي بحق الجحيم؟

لم تكن لويزا تملك جواباً على سؤاله. وفي تلك الليلة، وفيما كانت تتجول في القسم، فكرت في استشارة أحد الأطباء النفسيين في المستشفى. لكنهم لن يعطوها رأياً سريعاً، بل سيطلبون رؤية زاكاري لتقييم حالته مما يستغرق وقتاً طويلاً. أدركت أن زاكاري لن يوافق على رؤيتهم، فقد سبق ورأى الكثير من الأطباء في السنة الماضية. وكان يذكر الطب النفسي بشكل ساخر عندما يتطرقان إلى هذا الموضوع.

اتفقت مع زاكاري على الحضور إلى منزله اليوم التالي لتصطحبه إلى المحكمة.

قال زاكاري، وهو يفتح لها الباب: «وصلت باكراً».

بدا جدياً على غير عادته، في بذلته القاتمة وقميصه المخطط وربطة عنقه الحريرية. لكن لويزا فضّلته في بنطلونه القديم وقميصه الأبيض.

ـ حسناً، إن موقف السيارات في المحكمة صغير. لذا فكرت في أن أوصلك أولاً، ثم أفتش عن مكان لأركن السيارة.

نظر إليها بحدة: «فهمت. طبعاً، تخشين أن يروك تدخلين برفقتي إلى المحكمة».

احمر وجهها وحاولت أن تغير الموضوع، فقالت: «لا تنس ربط حزام الأمان».

تجاهل تنبيهها وأخذ يتأمل نفسه في مرآة السيارة، وقد توتر فمه بشدة.

ـ أعلم أن الناس سيحدقون فيّ عندما أدخل. ربما عليّ أن أضع كيساً في رأسي.

ارتفعت نبرته غاضبة، مما جعلها تضطرب وكأنها تلقت صفعة.

ـ لا تقل مثل هذا الكلام. في وجهك بعض الندوب . . .

ـ البعض فقط؟

وألقى نظرة أخرى على صورته في المرآة.

فقالت بلطف: «قد ينظر البعض إليك في البداية فقط. لكن سرعان ما يتعوّدون على مظهرك».

ـ أنت تقولين هذا لأنك اعتدت رؤية الناس المصابين بالحروق.

فقالت مصرة بحزم:

ـ لا. أنا أقول هذا لأني لاحظت، وعلى مر السنين، تصرفات المرضى وأسرهم إزاء تشوّهات الوجه. فالعقل البشري محيّر. يعتاد الناس، بعد فترة، كافة أنواع الإصابات والإعاقات. كما تختفي الندوب فلا يلاحظها الناس لأنهم يتوقعون رؤيتها. لدينا كلنا واجهة أمامية يراها الناس، وأي ندبة تصبح جزءاً منها. فلا يحدق فينا إلا الغرباء.

ـ سأسير اليوم في قاعة مليئة بالغرباء.

نظرت إلى يديه، فرأتهما منقبضتين. فأمسكت بهما ترفعهما، لتفرك أصابعه الواحد تلو الآخر.

ـ لا تكن متوتراً بهذا الشكل! إذا كنت لا تعرفهم فلِـمَ يهمك ما يفكرون فيه؟ سر في قاعة المحكمة مرفوع الرأس، وإذا حدّق فيك الناس،

تجاهلهم.

ثم تركت يديه وعادت إلى مقعدها، وقد احمر وجهها وخفضت بصرها.

ـ عليك أن تتجاهل تحديق الناس، على أي حال. فأنت رجل جذاب للغاية.

ابتسم ساخراً: «أعلم مدى جاذبيتي، فقد شعرت دانا بالغثيان حالما وقعت عيناها علي».

ـ آه، هي!

نبذت لويزا ذكرى «دانا» من ذهنها. لم تعرفها قط، لكنها علمت أنها لن تحبها فقالت: «ومن يهتم برأي تلك المرأة؟».

ضحك فجأة، وأجابها: «هذا صحيح. من يهتم برأي دانا؟».

وأمسك بذقن لويزا وردّ رأسها إلى الوراء ليرى وجهها بوضوح، ثم سألها: «حسناً، إذا كنت لا تخجلين من مظهر وجهي، فلم لا تريدين الظهور معي؟».

ترددت واضطربت، وتشابكت عيناها بعينيه بارتباك، ثم ابتعدت عنه. فقال باختصار: «الصديق الغيور؟».

فردت وقد فاجأها ذكر دايفيد الذي نادراً ما تأتي حالياً على ذكره.

ـ لا، طبعاً.

ـ ألن يكون حاضراً؟

ـ ولِـمَ يحضر؟ لم يكن متورطاً في الحادث. وهذا أمر لا يخصه.

ـ أما زلت ترينه؟

وتساءلت عما يجعله يهتم لأمر دايفيد؟

ـ إننا نعمل معاً، أراه طبعاً!

ـ أنت تعرفين ما أعني. هل تخرجين معه؟

ـ لا. أنا لا أخرج معه. لماذا تطرح كل هذه الأسئلة عن دايفيد؟

ـ إنني فضولي. هل ما زال يهتم بك؟

ـ إذا أردت أن تعرف، فاعلم أنه يخرج مع ممرضة أخرى من قسم آخر.

ونظرت إليه متحدية.

فألحّ يقول، وهو ينظر في عينيها: «هل لديك مانع في ذلك؟».

فتأوهت بضيق: «إنك أشبه بالموت أو بجابي الضرائب... أنت لا تتراجع أبداً، أليس كذلك؟».

ـ ليس عندما أريد جواباً. لذا، أخبريني، هل تضايقت عندما علمت أنه يخرج مع فتاة أخرى؟

ـ لا. لم يزعجني الأمر. لم يكن يهمني، ولم أكن المرأة المناسبة له. جمعت بيننا مودة كبيرة وهذا كل ما في الأمر. والآن هل يمكننا الكف عن تناول شؤوني الخاصة؟

ـ انتظري لحظة. لماذا أظهر هذه الغيرة كلها، ذلك اليوم، عندما تبعك إلى الكوخ، لو لم يكن يهتم لأمرك؟

ـ كان دايفيد يخدع نفسه، حين اعتقد أن أمري يهمه. لكنه سرعان ما عثر على فتاة أخرى حين اقتنع أن ما بيننا قد انتهى.

ـ ومن أنهاه؟ أنتِ أم هو؟

ـ أنا أقدمت على ذلك. أخبرته أن علاقتنا قد انتهت قبل أن يتبعني إلى هنا ذلك اليوم. وهذا ما سبّب غضبه نسبياً...

وسكتت فجأة، خوفاً من أن يفهم أنها قطعت علاقتها بدايفيد بسببه هو. فأضافت بسرعة: «أمضينا أسابيع نناقش الأمر، ولم يكن الأمر يتعلق بك. لكن صَدُف أنه تبعني إلى هنا ذاك اليوم».

فقال غير مقتنع: «همم... هل ظننت يوماً أنك تحبينه؟».

اضطربت وهزت رأسها بصمت، بينما أخذ يراقبها بإمعان: «هل ظننت يوماً أنك مغرمة بشخص ما؟».

ـ طبعاً! وماذا تظن؟ منذ سنوات عندما كنت مراهقة، كنت أقع في الغرام بسهولة.

ـ ومنذ ذلك الحين؟

لم تجب، فابتسم وقال: «هذا يفسر مظهرك».

لم تسأله عما عناه بكلامه، إنما بقيت صامتة بعناد. وبعد لحظة سألها:

ـ لِـمَ تخافين إذن الظهور معي؟ أتخافين أن يظن الناس أننا متآمران بشأن البراهين؟

ـ لا. طبعاً لا! ولكن. . . حسناً، إنه أبي. . . لم أذكر له أبداً أني أعرفك.

بدا عليه الذهول وقد فاجأه كلامها: «آه، فهمت. ألم تخبريه؟ لم تكن تلك الفكرة، إذن، فكرته. . . ؟».

وسكت، فقطبت جبينها وهي تحاول أن تكتشف كيف كان سينهي جملته.

سألته: «عن أي فكرة تتحدث؟».

وعادت بذاكرتها إلى الوراء، ففهمت ما عناه، وانفجرت تقول بغضب:

ـ لا، لا. لم تكن فكرة أبي أن أرافقك إلى المحكمة! فهو لا يعلم أني اجتمعت بك أكثر من مرة. كما لم أخبره أو أخبر أي شخص آخر ما رويته لي عن تلك الفتاة في الحديقة.

ساد صمت قصير، ثم ابتسم لها: «حسناً، هل نذهب؟ لقد أمضينا أكثر من عشر دقائق في الجدال هنا وسنتأخر إذا لم ننطلق في الحال».

لقد صدقها. فتنهدت وقد تملكها الارتياح، ثم انطلقت بسيارتها. استند هو إلى الخلف، بينما تحركت لتسلك الطريق الذي جاءت منه.

ـ لن يستغرق وصولنا إلى «وينبري» أكثر من نصف ساعة. لن نتأخر، ولحسن الحظ لدينا الوقت الكافي.

فقال ببطء، والمرح بادٍ في صوته: «أنت حذرة دائماً».

كانت تعلم أنه يغيظها لكنها لم تهتم. فقد تآكلها القلق حيال نتيجة المحاكمة، ومستقبل أبيها. كما يبدو أنها فقدت، في تلك اللحظة، روح النكتة.

اتكأ زاكاري إلى ظهر مقعده، وراح يتأمل الأشجار التي يمران بها، بأغصانها السوداء العارية. قال: «إن أزهار النرجس تملأ حديقتي. وبعد شهرين، سيحل الربيع. حدث الاصطدام في الربيع الماضي، منذ سنة كاملة. لم تمرّ عليّ سنة بمثل البطء الذي مرت به هذه السنة».

أخذت تحدق أمامها وهي ترتجف. ما زال يشعر بالمرارة. . وهي لا تلومه. لقد مرّ بأوقات صعبة منذ الحادثة، إذ انقلبت حياته كلها رأساً على عقب.

ـ ها أنا، على الأقل، أرسم من جديد. ليس لديك فكرة عن مدى السعادة التي تغمرني حين أدخل محترفي كل صباح لأرى ما رسمته في اليوم السابق ينتظرني كي أكمله.

فقالت بصوت أبح: «أنا لم أرسم قط في حياتي، لكني تصورت شعورك عندما لم تعد قادراً على القيام بالعمل الذي تعلمته وعشقته أكثر من أي شيء آخر».

ـ هل ستشتاقين إلى التمريض إذا اضطررت إلى ترك عملك؟

ـ نعم، كثيراً! فهذا ما أحسنه. إن قيام الإنسان بالعمل الذي يحسنه يشعره ببهجة مميزة.

فتمتم قائلاً: «أنت ممرضة جيدة. من الغريب أني أتذكرك بوضوح رغم أني لم أمكث في قسمك سوى لفترة وجيزة. إنّ أوضح صورة لك في ذاكرتي هي انحناؤك على سريري ليلاً، وكأنك ملاك بقبعة التمريض المنشاة تلك، وذاك الوجه الأبيض الهادىء. كما أذكر أني كرهتك كرهاً عظيماً، فقد كان الألم يتآكلني وفكرة الموت أو الإصابة بتشوه بالغ ترعبني. بينما أظهرت تصرفاتك برودة كبيرة وثقة بالنفس. أردت أن أصرخ بك، لأعبر عن غضبي واستيائي!».

ـ لقد فعلت مرة أو اثنتين.

ـ حقاً؟ حسناً، أنا أعتذر. الآن، وبعد أن عرفتك، أنا واثق من أنك بذلت كل ما في وسعك من أجلي. ولا بد أنك صُدمت حين صرخت بك!

ـ لا تكن سخيفاً! لقد اعتدنا ذلك. فنحن لا نتوقع من الذين يعانون أن يتصرفوا كقديسين.

ـ أنت متسامحة جداً، وتتحلين بكافة الفضائل وبالعفّة، أليس كذلك؟ أنت رقيقة حنونة، هادئة كريمة النفس، ومتسامحة للغاية. قفي!

ذعرت حين صرخ كلمته الأخيرة، وتملكتها دهشة بالغة، ثم التفتت إليه حائرة.

أمرها بصوت أخافها: «أوقفي السيارة!».

نظرت في المرآة فلم تر سيارة خلفها، كما لم تلاحظ أي سيارة متجهة نحوهما. لكنها أوقفت السيارة.

ـ ماذا حدث؟

لكن زاكاري لم يجب. بدا وكأنه نسيها تماماً. فتح باب السيارة، فنظرت إليه وهو ينزل منها على عجل، ثم يندفع مبتعداً. أتراه رأى شيئاً على الطريق؟ إنها حتماً لم تدهس شيئاً.

أرادت أن تعرف ما اقترفته. فخرجت من السيارة مكرهة وتوجهت

إلى حيث كان زاكاري واقفاً كالتمثال.

نظرت حولها، لكنها لم تر شيئاً. سألته وقد لاحظت وجهه الشاحب: «ماذا حدث؟».

فرمقها بنظرة غريبة ذاهلة: «كان ذلك هنا!».

ـ ما هو؟ طائر؟

ـ طائر؟ لا. تلك الليلة... كان ذلك هنا.

ـ آه، أتعني حيث وقع الحادث؟ لا، لا يا زاكاري. أنت مخطىء. إنه أبعد بكثير.

كانت تعرف المكان بالضبط، فلطالما مرت بهذا المكان في الأشهر الأخيرة. وفي كل مرة كانت تشعر ببرودة تسري في جسمها وبجفاف في فمها. كان يمكن أن يُقتلا، هو وأبوها.

ـ لا، ليس الحادث. ألا تفهمين؟ لقد رأيتها هنا!

جمدت لويزا مكانها، ورددت: «هنا؟ هل رأيتها هنا؟».

كانت عيناه مسمّرتين على الجانب المقابل من الطريق حيث سياج من شجر الزعرور وشجيرات صغيرة عارية الغصون. في الربيع الماضي كانت هذه الأغصان تعج بالحياة والألوان المختلفة، وقد انتشرت تحتها أزهار الربيع من بنفسج ونرجس أصفر.

ـ ذاك السياج... رأيتها تسير خلف السياج، في تلك الحديقة. المنزل... أترين ذاك المنزل الأبيض هناك خلف الأشجار...؟ لا بد أنه بيتها.

لم يكن صوته ثابتاً، وخرجت كلماته مبهمة نوعاً ما. كانت تسمع صوت تنفسه، وترى بخار أنفاسه في الجو البارد. أطلق ضحكة مكبوتة وقال: «لعلها في المنزل الآن، وقد تخرج منه في أي لحظة...».

حاكت لويزا الأشباح شحوباً. حدّقت عبر الحديقة الجرداء إلى البيت

www.elromansia.com

البعيد، شأنها في ذلك شأن زاكاري. ثم همست: «هل أنت واثق من أن هذا هو المكان؟».

ـ بالتأكيد. لا يمكن أن أنساه. لقد رأيتِ الصورة التي رسمتها. ألم تميّزيه؟

فقالت ببطء: «لا. ولم يخطر ببالي ذلك... فالحدائق متماثلة، كما أن البيت لم يكن واضحاً جداً. لم يخطر هذا ببالي ولو لمرة واحدة».

التفت إليها بلهفة وسأل: «أتعرفين هذا البيت؟ أتعرفينها؟ ما اسمها؟».

لم تجبه بل رفعت إليه عينيها الزرقاوين القاتمتين وهما تلمعان بالدموع وتتألقان سعادة.

مضت لحظة طويلة وهو يحدّق فيها، ثم اتسعت عيناه مدهوشاً وقد تجلّت على وجهه صدمة بالغة. قالت له بهدوء:

ـ كان عيد ميلادي، وكنت أمضيه دائماً مع أبي. ولكن رغم وعوده نسي الأمر ورافق زوجته إلى إحدى الحفلات. قصدت بيتي القديم، وهو المنزل الذي تراه هناك... ففيه عشت معظم أيام حياتي حتى تزوج أبي مرة ثانية. ظننت أن أبي سيكون بانتظاري. وكنت قد اشتريت ثوباً جديداً للمناسبة، ثوباً شاعري الطراز، أبيض شفافاً، ذا كمين طويلين، يزينه الدانتيل على ياقته. كان يبدو، نوعاً ما، كفساتين العصور الماضية.

ـ نعم.

توقفت عن الكلام، تنتظر، لكنه لم يضف أي كلمة أخرى، فتابعت تقول:

ـ عندما وصلت، اكتشفت أن أبي لم يحضر، فاستأت وغضبت. اتصلت بأبي وعاقبته لأنه نسي عيد ميلادي. كان تصرفاً أحمق وصبيانياً مني... ويا ليتني ضبطت أعصابي، ولم أفعل. كان عليّ أن أتناول الطعام

وحدي أو أن أتصل بصديقة أو أقوم بأي شيء آخر ما عدا التصرف كطفلة مدللة.

ضحك وقال: «أنت؟ هذا غير ممكن. لا يمكن أن تكوني طفلة مدللة».

فابتسمت: «أنت لا تعرفني».

ـ سأعرفك!

قال كلمته بلهجة قطعت أنفاسها، لكنها استجمعت قواها وأكملت:

ـ لقد أحزنت أبي. طلب مني أن أنتظره وقال إنه سيصل بعد عشر دقائق. وهكذا خرجت إلى الحديقة. كانت ليلة ربيعية جميلة، فسرت كي ألاقيه هنا.

فهمس يقول: «كان شعرك ينسدل على كتفيك كفتاة صغيرة، ويتماوج حول وجهك وأنت تسيرين. كما كان ثوبك الأبيض يتطاير حولك أيضاً. بدوت كعذراء العصور القديمة في انتظار حبيبها، في شفق الغروب. كنت هادئة غامضة كضوء القمر».

ضحكت بهدوء: «أنت شاعري للغاية. لا يبدو عليك هذا».

فسألها وقد عادت المرارة إلى صوته: «كيف أبدو إذن؟ لا، لا تجيبي على هذا السؤال... أعلم أني أبدو كمسخ يخيفون به الأطفال...».

ـ هذا غير صحيح! إن في وجهك آثار الحادث وفي عقلك أيضاً، لكنك ما زلت رجلاً جذاباً... أنا آسفة، يا زاكاري، فسرعة أبي كانت بسببي أنا. وذنب معاناتك كلها ذنبي أنا.

نظر إلى وجهها متفحصاً، إلى تلك العينين الزرقاوين الواسعتين، والبشرة الرائعة، والشفتين المرتجفتين فرقّت نظراته وابتسم لها:

ـ ربما كان علي أن أدفع هذا الثمن لأجدك. ولكل شيء في الحياة ثمن.

www.elromancia.com

فخفق قلبها بسرعة بينما تابع يقول: «وقد تعلمت الكثير، عن نفسي وعن حياتي في السنة الماضية. ربما سأصبح رساماً أفضل بعد حين. سأكون نوعاً آخر من الفنانين. على أي حال اعتدت أن أرسم المناظر الطبيعية... فأنا لم أرسم الناس يوماً رغبة مني في ذلك... لكنني أدرك الآن أن سبب ذلك هو أني لم أكن أجد صلة بيني وبين الناس. لهذا فضلت رسم الطبيعة لأنها لا تتطلب شيئاً من ذاتي. ولكن عندما عدت أخيراً إلى الرسم، أدركت أني أريد أن أرسم شكل إنسان، الفتاة التي حلمت بها ليالٍ طويلة، وهي... أنت... أنت التي تعلّقت بها طوال تلك الأشهر. أنت التي جعلتني أكافح في سبيل الحياة».

بلغ بها التأثر حداً عجزت معه عن الكلام. تذكرت الليلة الأولى التي أمضاها في قسمها في المستشفى، يتأرجح بين الموت والحياة. بقيت تتردد عليه طوال الليل، تحدق فيه وهو مستلقٍ على سريره لا يتحرك وكأنه مخدَّر. لم يخطر ببالها قط أنه يحلم بها.

وضع زاكاري ذراعه حول كتفيها، وشدها إليه. ثم أحاط وجهها بيديه، وراحت عيناه تجولان على عينيها وأنفها وفمها وعنقها وشعرها المربوط إلى الخلف.

ـ عديني أن تسدلي شعرك دوماً على كتفيك حين لا تعملين.

رفع يديه وأخذ ينزع الدبابيس التي تثبت تسريحتها وأضاف: «هذا يجعلك تبدين أصغر من سنك بسنوات. ألا تدركين ذلك؟».

فضحكت وقالت: «ولـِمَ أرفعه برأيك؟ عندما بدأت العمل في القسم، سخر مني المرضى ولم يثق بي الأطباء، لأنني بدوت كفتاة صغيرة. لذا اعتدت أن أرفع شعري لأبدو أكبر سناً».

ـ حسناً، لا تفعلي هذا بعد الآن.

قال ذلك وهو يداعب الخصلات الكثة الطويلة السوداء بأصابعه: «إنه

كالحرير... الحرير الأسود. إنني متلهف لأراه إلى جانبي كل صباح».

علت الحمرة وجهها وشهقت، فرمقها بنظرة ماكرة مازحة وقال: «هل أبدو مستعجلاً، يا حبيبتي؟ نحن نعرف بعضنا منذ سنة تقريباً».

فاشتد احمرار وجهها ولم تتكلم.

ابتسم معلقاً: «ها إن وجهك يحمرّ مجدداً... كان عليّ أن أتنبّه لذلك منذ وقت طويل... فاحمرار وجهك المتكرر لا يتناسب والصورة التي كوّنتها عن الأخت جيلبي... جبل الثلج في زي التمريض. إنما يمكنني أن أتصور الفتاة التي رأيتها في هذه الحديقة محمرة الوجه خجلاً. لقد وقعت في غرامها لحظة رأيتها تسير في ضوء الشفق. ولكن كان عليّ أن أتذكر أن النظر خدّاع، لا سيما في تلك الساعة. ظننتني رأيت فتاة صغيرة. وعندما رأيتك في القسم، وأنت ترتدين زي التمريض، لم أعرفك أبداً. بدوت لي مختلفة. خدعتني عيناي مجدداً، أليس كذلك؟ الممرضة الطويلة الهادئة التي انحنت فوق سريري كملاك هادىء في الليل، هي نفسها الفتاة التي كنت أحلم بها. كان الفرق كله في عقلي».

أحست بغصة وتملكها القلق، فتوترت وسألته: «أتعني أن شعورك نحوي هو مجرد تخيلات؟».

فرد برقة: «لا، يا لويزا. مشاعري ليست المشكلة، وإنما عقلي. رأيت في تصرفاتك برودة لم تكن موجودة، أليس كذلك؟ وكرهتك لأنني ربطتك بآلامي، علماً أنك كنت تحاولين تخفيفها. لكني، في الوقت نفسه، كنت منجذباً إليك. وهذا ما أربكني وخلط الأمور في ذهني. كنت أحلم ليلاً بامرأة، وفي يقظتي أرغب في معانقة امرأة أخرى. وعندما بدأت المرأتان تندمجان ظننت أني أعاني من مشكلة. فالمرء لا يحب اثنتين في الوقت نفسه، وحين يخلط بين واحدة وأخرى يحتاج إلى مساعدة طبيب نفسي».

فاعترفت قائلة: «لقد فكرت في ذلك فعلاً».

www.elromancia.com

ضحكت فجأة وقد خطر لها أن قلقها من أجله لم يكن إلا وهماً، وأنها كانت المرأتين اللتين رسمهما.

ـ أعلم هذا. لاحظت ما بدا على وجهك حين نظرت إلى اللوحة التي رسمتها ورأيت وجهك على ما يفترض أن يكون جسم امرأة أخرى. كان عليّ أن أفهم، حينذاك. لم أعد قادراً على تخيّل الوجه الذي رأيته، ولم أر سوى وجهك. وكان على هذا أن يرشدني إلى الحقيقة.

ـ رجوت أن يكون معنى ذلك أنك نسيتها وحوّلت عواطفك نحوي.

تنفس بعمق، وقال: «لويزا، حبيبتي، أخبرتك لتوّي أنني أحبك. ما هو شعورك نحوي؟».

فردّت ضاحكة بصوت أبح: «ألا تعلم؟ أنا مجنونة بك. أحببتك منذ أحضروك إلى قسمي ضعيفاً عاجزاً».

نظر إليها بأسف: «ولكن هل ستستمرين في حبي عندما لا أعود ضعيفاً عاجزاً؟».

ثم انحنى نحوها وتعانقا بلهفة عارمة، وشوق جارف.

رفع زاكاري رأسه وهو يتنفس بصعوبة: «أشعر بدوار. أنا لا أحلم، أليس كذلك؟ هل أنت هنا، يا حبيبتي؟ وهل ما يحدث بيننا حقيقة؟».

ولامس خدها بيده فابتسمت له وفمها يرتجف. وفجأة لمحت الساعة في معصمه فهتفت بذعر: «انظر إلى الساعة! سنتأخر عن المحكمة».

وتملصت منه وأخذت تركض نحو السيارة فيما تبعها هو.

حين تحركت بالسيارة قال يطمئنها: «أمامنا ثلاثة أرباع الساعة، وهو وقت كاف».

كان هذا صحيحاً، فقد نزل أمام المحكمة وبحثت عن مكان تركن فيه سيارتها. رفض زاكاري أن ينزل على الفور من السيارة، مصرّاً على أن تعانقه. فأخذت تدفعه، وتستعجله، لكنه ضمها بين ذراعيه، ثم تركها

مكرهاً.

لم تجد لويزا مكاناً تركن فيه السيارة بسهولة. وعندما وصلت، كان النظر في القضية قد بدأ، فجلست على كرسي بين الجموع، وعيناها القلقتان تتنقلان بين أبيها وزاكاري من جهة، وبين وجوه القضاة والمحامين من جهة أخرى.

تسللت شمس الشتاء من النوافذ، لتحفر خطوطاً قاسية على وجه أبيها الذي بدا مسناً. ولم ترحم أشعة الشمس الباردة تلك وجه زاكاري. فقد أظهرت ندوب وجهه دون رحمة. اضطربت حين رأت الناس في المحكمة يحدقون فيه. وكان هو يسمّر نظراته في الأرض وقد توتر فكه. وأدركت أنه يخجل من تحديقهم فيه، كما لاحظت توهج الندوب على وجهه واحمرارها.

تألمت لأجله، لأجل هذين الرجلين اللذين تحبهما. كان من السخرية المرة أن يجتمعا بهذه الطريقة، بسبب حادث دمّر حياتهما معاً. وأن يتقابلا هنا، متخاصمين، في المحكمة. خافت من نتيجة هذه المحاكمة. فالعدل نحو زاكاري قد يعني دمار أبيها... فكيف يمكنها، حينذاك، أن تعلم أباها بأنها تحب الرجل الذي هدم حياته؟

تقدمت القضية ببطء، وبقسوة، ساعة بعد ساعة. ألقى المحامون مرافعاتهم، ووجه القضاة أسئلتهم. أما أبوها وزاكاري فأدليا بشهادتيهما، وكذلك فعل رجال الشرطة ورجال سيارة الإسعاف الذين وصلوا فور وقوع الحادث.

بدا الذهول على هاري جيلبي عندما اعترف زاكاري بأنه كان مشتت الذهن تلك الليلة.

إذ قال: «عليّ أن أعترف أن ذهني كان مشغولاً بأمور أخرى وإلا لتنبهت للسيارة المتجهة نحوي».

www.elromancia.com

فنظر إليه جيلبي نظرة شاكرة، غير مصدقة.

ومع مرور الوقت، وجدت لويزا صعوبة في البقاء مستيقظة بالرغم من لهفتها وكربها. فهي لم تنم ذاك اليوم كما كانت تعمل ليلاً. وفي جو المحكمة الخانق، أخذت تغالب النعاس أثناء إدلاء رجال الشرطة بشهاداتهم.

لم يكن في قرار المحكمة، أخيراً، أي مفاجآت. فاعتبر هاري جيلبي مسؤولاً إلى حد كبير عن الحادث. وهذا يعني أنه سيدفع لزاكاري ويست، تعويضاً عن إصاباته الجسدية، وعن إتلاف رسومه. لكن تحديد المبلغ سيتم في جلسة أخرى.

أخذ الحاضرون يغادرون القاعة، فخرجت لويزا متعثرة مثقلة الأهداب، ومضطربة. أما أبوها فخرج مع زوجته ومحاميه. تقدمت لويزا نحوه، تقبله، وتسأله: «كيف تشعر يا أبي؟».

فأجاب مقطباً: «سررت بانتهاء كل شيء».

ـ لكنهم لم يحددوا التعويض!

ـ يبدو أن الموضوع غير عادي. إذ على زاكاري ويست أن يقدم تقريراً، يحسب فيه بدقة خسارته والعطل الذي أصابه.

فقالت نويل غاضبة: «وربما سيضاعف الأرقام التي فكر فيها في البدء».

وفي هذه اللحظة، تقدم زاكاري نحوهم، فألقى عليه هاري جيلبي نظرة خجلى، مترددة، وهو يمدّ يده: «آسف جداً، يا سيد ويست... وشكراً على ما قلته في المحكمة. فقد أظهرت نزاهة كبرى وكرماً بالغاً».

صافحه زاكاري باسماً: «ما قلت إلا الحقيقة. وعلى أي حال، لديّ دوافعي الخاصة التي جعلتني أتصرف بهذه النزاهة».

فنظر إليه هاري جيلبي بضيق وقال: «آه، وما هي؟».

وضع زاكاري ذراعه حول خصر لويزا، قائلاً: «أريد الزواج بابنتك».

ففغر هاري جيلبي فاه مدهوشاً. لم يكن ذهوله يعادل ذهول لويزا التي كاد يغمى عليها. رفعت لويزا إليه عينيها الزرقاوين الداكنتين، فابتسم لها زاكاري بعاطفة محمومة يخالطها المرح: «هل استعجلت مرة أخرى، يا حبيبتي؟».

ـ لويزا؟

وعنى سؤال أبيها هذا، أنها لم تخبره قط عن زاكاري، وأنه ليس لديه أدنى فكرة عما يجري بينهما.

منع الذهول نويل من النطق، ولكن عينيها تنقلتا بين لويزا وزاكاري غير مصدقة.

قالت لويزا لزاكاري وهي تضحك: «لا. لم تستعجل الأمور. أنا مستعدة للزواج منك غداً. ولكن أليس علينا أن نتحدث قليلاً في هذا الأمر، أولاً؟».

فرد بسرور واضح: «حريصة عملية كما عهدتك».

وأكمل: «نعم، أنت على حق. لقد فكرت لتوّي بأن أطلع أباك على الأمر وأوضح له نواياي الشريفة».

وقال لها أبوها راجياً: «لويزا، أنا لا أفهم. لم تذكري أيّ كلمة عن... عن أنك تقابلينه. لماذا لم تخبريني؟».

ـ الحقيقة أن... آه، ألا يمكنك أن تفهم... كان صعباً...

أخذت تتلعثم، فتدخل زاكاري بحزم: «أظن أنه علينا أن نعود جميعاً إلى بيتك، يا هاري... هل يمكنني مناداتك هاري؟ حسناً. دعنا نعود إلى بيتك وسنخبرك، أنا ولويزا، بكل شيء. وبالمناسبة، إنسى أمر التعويض هذا... فأنا، طبعاً، ليس في نيتي أن أبدأ حياتي الزوجية بإرغام والد

www.elromancia.com

زوجني على دفع كل قرش في جيبه».

أخذ هاري جيلبي يقول متلعثماً: «و . . . ولكن . . . هل . . . هل أنت واثق؟».

فقالت نويل بسرعة: «طبعاً إنه واثق».

قطبت جبينها، ونظرت إلى زوجها بفروغ صبر ثم ابتسمت لزاكاري بعذوبة وأكملت: «هذا كرم منك، يا زاكاري. وحكمة أيضاً بعد أن صرت من أفراد الأسرة».

فرد برزانة: «شكراً يا نويل».

لكن لويزا لمحت سخرية في عينيه. كانت نويل رائعة الجمال، لكنها لم تستطع خداع زاكاري كما خدعت هاري جيلبي.

أحكم ذراعه حول خصرها فرفعت لويزا بصرها إليه، وشعرها الأسود منسدل حول وجهها المتوهج وعيناها تنطقان بصمت، تعبران له عن شكرها لهذه اللفتة الكريمة. وسألها: «هل لنا أن نغادر؟ لدينا الكثير نخبره لأبيك وزوجته. كما هناك ما ينبغي إيضاحه».

أومأت موافقة. لكنها علمت أنهما لن يتمكنا أبداً من إيضاح القصة بأكملها. سيخبرانهما بأنهما يحبان بعضهما، ولكن سيسكتان عن الكثير من الأشياء الخاصة التي لا يمكن الحديث عنها. وكيف يفسران لهما إن زاكاري كان يحبها قبل أن يعلم أنها هي التي يحب؟ كيف يفسران أنها وقعت في غرامه حين كان غائباً عن الوعي، ووجهه مجرد قناع؟ من سيفهم كل ذلك؟ إن لويزا نفسها لا تفهم، شأنها في ذلك شأن زاكاري . . . ولكن ربما، يوماً ما، سيرسم لوحات تكشف هذا الغموض لهما. وعند ذاك يعلم العالم بأجمعه كيف أحبا بعضهما البعض.

***

الباقة المقبلة من أحلام

خطيبة بالإيجار

قال ليتون ديكستر:

ـ لا فتاة تود أن تكون أعلى خوخة على الشجرة بحيث لا يصل إليها أحد . . .

ودّت ڤيڤيان لو توجه لكمة إلى وجهه الوسيم لتبرهن لهذا الرجل المغرور أن قوله لا ينطبق عليها . .

لكن مفاجآت ليتون لم تنتهِ بعد:

ـ إذا أردتِ إنقاذ شركتك من الإفلاس، عليك أن تلعبي دور خطيبتي لمدة أسبوع . .

ظن ليتون أنه يستطيع الوصول إليها بهذه الطريقة، لكن ڤيڤيان ستثبت له أنه لن يصل إلا إلى المتاعب . . .

أعدني إلى الصحراء

ضاعت في الصحراء مع رئيسها . . .

غريس روبينز السكرتيرة الصارمة، الجادة أكثر من اللزوم، التي تخبيء جمالها الساحر وراء عقل لا يخطيء . . .

لا يخطيء؟!! بلى . . . إنه خطأ واحد فقط، لكن المصيبة أن ميتش وينترويرث رئيسها الذي وصفته بالقرصان كان شاهداً على هذه الهفوة التي أرادت أن تنساها.

. . . والآن هما وحدهما في البراري القفراء . . . بينهما وبين الموت خطوات، وبينها وبينه ميثاق شرف . . وشيئاً فشيئاً تتساقط الأقنعة التي تحجب الحقائق، وتتهاوى كل وسائل الدفاع . . .